هُنا حَلَب

"قِصَّةُ المَوتِ في مَدينةِ الحَياة"

د. شيرين عدنان قبرطاي

هُنا حَلَب

"قِصَّةُ المَوتِ في مَدينةِ الحَياة"

تأليف: د. شيرين عدنان قبرطاي

تصميم الغلاف: سينا حاج حَسَن

تقديم

"هنا حلب".. رواية اجتماعية تدور أحداثها في مدينة حلب الشهباء وريفِها.. وتلقي الضوء على واقع معاناة البلاد والعباد إبَّان إندلاع الثورة السورية في إطار رحلةٍ شيِّقةٍ وقصيرة لشخصياتٍ يحمل كلٌّ منها نظرته الخاصة للحياة في السنوات الأولى للثورة.. لكن القاسم المشترك الأكبر بين الجميع هو الطابع الإنساني الذي لا يختلف عليه أصحاب الضمائر والقلوب...

صباحُ الصاروخ أيُّها الخَير

انتفضَتْ مِن سَريرِها مَذعورةً إثرَ دويٍّ انفجارٍ كبير..

ارتعدَتْ فرائِصُها للوهلةِ الأولى فتفقَّدَتْ جسَدَها بكلتيّ يَدَيها مُتحسِّسةً رأسها مَخافةَ وجودِ نزيفٍ أو جرحٍ في مكان ما بعد أن تهاوى عليها جلُّ المَتاع القابعِ فوق خزانةِ الملابس المُحاذيةِ للسَرير..

لم يكن انفجاراً عاديَّاً.. لا..

ليسَ دويَّ جرةٍ مُتفجِّرة أو قذيفةٍ متواضعة محليَّة الصُنع كالمُعتاد..

بدا أنَّه صاروخٌ محترمٌ له وزنه في سوقِ صناعةِ الموتِ هذه المرَّة..

رمى بثقله واستقرَّ في بقعةٍ قريبة منَ الحيِّ!

ما هي إلا ثوانٍ حتى تَعَالت أصواتُ الصُراخ والنَحيبِ والاستغاثة بعد أن تجاوزَ الجميعُ صدمةَ اللحظاتِ الأولى للصاروخ..

أو ربَّما.. بعد أن تجاوزَهُم الصاروخُ جميعاً بلحظات..

هرعَتْ يارا حافيةً باتجاهِ الشُرفة لتستطلعَ ما جَرى في الخارج مُتفقِّدةً في عُجالة ملامحَ شقّتِها التي كَسَاها الغبار ولم يَعُد لنوافذِها زجاج..

من حُسنِ حظِّها أنَّه صيفٌ حارٌّ هذا العام..

أهلاً بالاحتباسِ الحراري ولا حاجة للزجاج حتى إشعارٍ آخر!

في الحقيقة.. يبدو أنَّ قائمةً طويلةً من الأشياء لم يعد لها داعٍ حتى إشعارٍ آخر.. على رأسها جزء من ستارة الشُرفة اقتُلِعَ هو الآخر وطُرِحَ أرضاً ليستقرَّ على قارعة الطريق..

بحذرٍ شديد اقتربَتْ من عَتَبة ما تبقى من الشُرفة ومدَّتْ رأسَها لتراقبَ بِتَوَجُّسٍ فزعَ الأحياءِ الناجين من البشر وهم يتراكَضون ويقضُّونَ مَضجعَ مَن سَكنَ مِنَ الأموات..

فتىً يبحثُ بينَ الأنقاض بِهَلَعٍ عن غالٍ كان برفقتِه قبل ثوان..

أغلبُ الظنِّ أنَّها أمُّه.. فأنفاسُه المَحبوسة تشي بأنَّ ثمَّة حبلاً سرياً قد قُطِعَ للتوّ..

شابَّان يَحملان بيأسٍ ثلاثةَ أرباعِ رَجُلٍ مُضرَّجاً بدمائِه.. ولو أنَّه كان حَيَّاً ويقوى على النُطق لرَجاهم أن يتركوه راقداً في مكانِه بسلام..

لكنَّها فوبيا تأنيبِ الضَمير.. لو عثرَ أحدُهم على إصبعٍ مَبتورٍ بين الركام لحمَلَهُ على هُونٍ وبحثَ عمَّن يناسبُ مَقاسَه..

يخشى هؤلاء الطيِّبون صوتَ ضميرهم لاحقاً إن تلكَّأوا في إنقاذ ما يمكن أو حتى ما لا يمكن إنقاذه..

المشهدُ بِرُمَّتِه غيرُ قابلٍ للاستيعاب أو التفسير.. وكأنَّنا ننتظر الآن تصفيقاً حارَّاً من فريق عملٍ سينمائيٍّ بعد أن يوعِز المُخرجُ للجميع "Cut".. مُعلِناً خِتامَ مَشهدٍ تمثيليٍّ مُرهِقٍ ثقيلٍ من فلم أكشن!

امتزجَتْ رائحةُ البارود برائحةِ اللحم الطازج المَشويِّ توَّاً.. وثمّة رائحة قهرٍ وعجزٍ هي الأخرى عمَّت الأرجاء..

ليس لهم إلا التسليم بما جرى.. ولملمة جراحِهِم ولثمها ككلِّ مرَّة..

هذا هو حالُ المُستضعَفين في الأرض.. ولعلَّ حالَ بعضِهم الآن أفضل.. في مقامِهم الجديد!

يدفعُك ما جرى إلى نَصْبِ مُحاكمةٍ سريعة في ذهنك.. أنتَ فيها الجاني والمَجني عليه معاً.. والحُكْمُ مع وقف التنفيذ.. وستُرفَعُ القضية إلى الحَكَم العَدل..

تَسمَّرَتْ يارا وهي تراقبُ مِن على شرفتِها ما يجري في الحيِّ دونَ أن تحتسبَ هذا الوقتَ المُستقطعَ من حياتها.. ربَّما كان خمس دقائق.. عشر.. نصف ساعة.. لا يهمُّ كم طالَ تسمُّرُها على الشرفة..

ففي النهاية.. لحظة حظٍّ عاثرٍ كتلك التي مرَّت كفيلةٌ بأن تشطبَ عمراً كاملاً بكلِّ تفاصيله..

لم ينتشلها من صدمَتِها وجمودِها إلى رتْم نشاطها اليوميِّ إلا صوت جوَّالها الذي يصدَحُ الآن بلا هوادة قادماً من غرفتِها في آخرِ المَمرِّ..

آه... لا بدَّ أنَّها الحاجَّة ناديا من دمشق.. وقد تطوَّعَ أحدُهُم بإخبارها أنَّ صاروخاً ما ضربَ للتوّ حيَّ (سيف الدولة) الذي تقطنُه ابنتُها في حلب..

ألن تنتهيَ ثرثرةُ الفيسبوك ووشاياتُه المُتواصلة عما يحدثُ هنا؟

أصبحتَ لا تملكُ أن تُؤَجِّلَ أو تُخفيَ خبراً عن أحد.. فالفيسبوك يتكفَّلُ بطرحِ وتوثيقِ كلِّ شيء.. كلُّ شيءٍ باتَ مُتاحاً على المَلأ بالصوتِ والصورةِ واللحظةِ وربَّما قريباً بالرائحة!

بِتْنا جميعاً ودونَ أن نَعي مُتطوعينَ لدى سيد مارك بووك..

هوَ يملكُ موظفاً في كلِّ بقعةٍ من الأرض.. يحشو له صفحاته بحماسةٍ دونَ كللٍ أو ملل، بل ودونَ أجر.. حسبُه تفاعلات الأصدقاء التي تحرِّضُ ثم تُرضي مساحة (الأنا) فيه.. وهذا كافٍ ليكتمل شعوره المتواضع بالاستحقاق..

"- صباح النور أمِّي..

- لا لا أنا بخير..

- أيّ صاروخ يا ندُّوش؟

- لقد استيقظتُ للتوِّ على صوتِ اتصالك.. ولكن نعم.. سمعتُ دويَّاً ما في مكانٍ ما من بعيد..

- لا لا.. ليسَ في حيِّنا.. قد يكون في الحيِّ المُجاور..

- أجل من الطبيعيِّ أن تسمعي صوتَ سياراتِ الإسعاف.. قد تكون في طريقها إلى المكان..

- حسناً أمّي أكلِّمُك لاحقاً.. عليّ الذهاب إلى الحمَّام الآن.. وداعاً"..

تملَّصَتْ كالعادةِ وبدمٍ باردٍ من استجوابِ أمِّها.. وخرجَتْ من دائرة شكوكِها كما الشعرة من العَجين.. وأُقفِلَ المَحضرُ ضدَّ مجهول.. هو بالطبع المجهولٌ المعروف.. غير أنَّ أحداً لا يجرؤ على الإشارة إليه..

رمَتْ جوَّالَها على السرير.. ملأتْ دلَّةَ القهوةِ حتى الشفَّة.. وضعَتْها على النار وما انفكَّتْ تستحضرُ في مُخيِّلتها شريطَ صور الضحايا الذين سقطوا قبل قليل..

تلك النارُ الوَديعةُ التي تصنعُ لك ِالقهوةَ الآن.. هي ذاتها التي التهمَتْ أجسادَهم قبلَ قليل.. يا لها من مُفارقة!

ليست المرَّةَ الأولى التي تختبر فيها يارا مثل هذه الأحداث وقد لا تكونُ الأخيرة.. وهي العاملة في قطاعِ المُنظَّماتِ الدوليَّة والعمل الإنساني منذُ عامٍ ونصف.. وقد ترتَّبَ عليها أن تنتقلَ إلى حلب لفترة كعنصر ارتباطٍ وتنسيقٍ لبعض المشاريع والنشاطاتِ الخيريَّة والإنسانيَّة.. لتُوْدِعَ أمَّها في عهدةِ ابنةِ خالتِها التي تدرسُ الأدبَ الإنكليزي في دمشق..

هم في الأصلِ من مدينةِ حلب.. تنحدرُ عائلتُهم تحديداً من حلب القديمة.. غير أن عملَ أبيها في مطار دمشق الدوليّ استوجبَ انتقالهم للإقامة هناك منذ سنوات.. لكنَّها تحتفظُ بجرعةِ ذكرياتٍ جميلةٍ لا بأسَ بها عن حلب قبل مغادرتِها.. وها هي الآن تعود إليها.. وأيضاً بسبب ظروف العمل..

والدُها متوفىً منذُ أن كانت في التاسعة عشرة.. تماماً منذ عشرة أعوام.. وكان لها أخٌ وحيدٌ يصغرها بثلاثِ سنواتٍ.. ياسر..

لكنَّهُ وكالكثيرِ من الطيورِ السوريَّة المُهاجرة.. لقيَ مصيراً مؤلماً..

هاجرَ بجناحَين ضعيفين في رحلةٍ تفوقُ قدراتِه فسقطَ في عُرض البحر ولم يخرجْه أحدٌ حتى الآن!

حتى الآن؟ وكأنَّ ثمَّة أمل في إخراجِه بعدَ الآن!

غرِقَ ياسر قبالةَ السواحلِ الإيطاليَّة منذ تسعةِ أشهرٍ مع من كانَ معهُ من المُهاجرين غير الشَرعيين..

"مُهاجريين غيرُ شرعيين".... يُضحِكُها هذا المُصطلحُ..

وكأنَّ كلَّ شيءٍ في هذه الحياة شرعيٌّ فيما عدَاهم..

ثم ما هيَ الشرعيَّة؟

أن تموتَ أينَ تشاء وكيفَ تشاء.. (ديمقراطيَّة)!!

ولكن لُطفاً إبقَ في القاع.. لا أريدُ لأرضي أن تتَّسِخَ بدمائك.. (حضارة)!!

كم هو ماكرٌ ذاكَ الغَرب!

يَحتكُرُ مُمارسةَ لا إنسانيَّته المَشروعة بكُلِّ أناقة!

لم يُفلح خفرُ السواحلِ وفريقُ الإنقاذِ المؤازرِ له حينها في انتشالِ جثَّةِ ياسر التي يبدو أنَّها استقرَّت في مكانٍ ما من قاعِ البحر..

وربَّما نهشَتْها الأسماكُ واقتاتَتْ عليها هناك.. ثم كما تعلَّمنا في دروسِ العلوم وبفعلِ السلاسلِ الغذائيَّة.. يصطادُ أحدهم هذه الأسماكَ ويعلِّبُها ويصدِّرُها للأسواق.. وقد يأتي اليوم الذي أتناولُ فيه من تَنَاولوا ياسر!!!

لا عجبَ أنَّني نباتيَّة بعد هذا الكمِّ من الجُثَثِ والأشلاءِ وقصصِ المَوتِ التي عايَشتُها.. أصبحتُ أكرهُ رائحةَ اللحمِ بكلِّ حالاتِه..

أووووه ما الذي أتى بنا إلى هُنا وما الذي أتى بياسر الآن إلى ذهني..

تبَّاً لآليَّةِ النكوصِ إلى الماضي وتداعياتِها وإلى كلِّ ما هو مؤلم..

ما أن يصادِفك حدثٌ دراميٌّ جديدٌ حتى تتداعى أمامَك كلُّ الأحداث السابقة فتضع ذاكرتُك اللئيمة نظَّارتَها الثخينة لتفتحَ وبابتسامةٍ خبيثةٍ

مع حاجبٍ مرفوعٍ جميع ملفاتها المُوجعة وتمضَغَها وتجترَّها مِراراً وتِكراراً وبذاتِ الشراهةِ والتشفِّي في كلِّ مَرَّة..

هي وبطبيعةِ الحال لم تُمْضِ يوماً دون أن تَذْكُرَ أخاها..

ولكنَّها كانت تُقفِل سيرَته في رأسِها دائماً وبشكلٍ عشوائيٍّ قسريٍّ اعتباطيٍّ ومُباغِتٍ، لتُدَندنُ بأول أغنيةٍ استحضرَها ذهنُها بصوتٍ عالٍ ما أن تصلَ لفقرةِ تخيُّلِ الأنفاسِ الأخيرةِ له!

هل تألَّمَ كثيراً؟

هل طالَتْ دقائقُ اختناقه؟

كيف كانت تعابيرُ وجهِه؟

ليتَها شاهدتْ سكَرَات موتِه (على قسوتِها) ولم يُترَك الأمرُ مفتوحاً لمُخيِّلتِها الجامِحة الشريرة التي تفوقُ مُخيَّلة آليَّاتِ الذكاءِ الاصطناعيِّ وتشطحُ بعيداً في كلِّ مرَّة..

هل ماتَ بسرعة أم أنَّه حاربَ قليلاً بنيَّة الانهزام المؤجَّل..

كان يعرفُ أنَّها ولا مَحالة معركةٌ خاسرة مع كلِّ هذه الأمواجِ العاتية.. غيرَ أن عليه استخدام حقِّهِ أو ربَّما واجبهِ في الدفاع عن أنفاسِهِ الأخيرة..

وربَّما تحرَّكَتْ أطرافُه بجنونٍ لا إراديَّاً دونَ وعي منهُ تَمَسُّكاً بحلاوةِ الروح إلى أن أنهكَتْها ثم أسكَنَتْها بشاعةُ الغَرق!

ليس أصعب من أن تفقدَ عزيزاً هكذا فجأةً.. بلا مقدمات.. ودونَ أيِّ أثرٍ له!

تفقِده مع كلِّ مُتعلّقاتِه الأخيرة.. كلِّها.. هكذا وببسَاطة.. يخبرُك أحدُهم أنَّه تبخَّرَ.. وألا تنتظرَ منهُ أو عنهُ شيئاً..

هكذا.. للأبد!!

ما زالَت تذكرُ ذلكَ اليوم.. حينَ أعلموها بأنَّ اسمَهُ مُدرَجٌ على قوائم المفقودين ممَّن كانوا على متنِ القاربِ المَشؤوم..

تواصَلَتْ معَهم بعد انتشار خبرِ حادثةِ الغرق.. ولثلاثةِ أيامٍ مُتتالية كانت تأملُ أن تسمعَ شيئاً يُغلِقُ دائرةَ أفكارِها المُنهَكة..

أيَّ شيء..

أنَّهم وجَدوا جثتَهُ مثلاً.. وأنَّها منتفخةٌ زرقاء.. أو حتى مُتحلِّلة!

لكنَّه على الأقلّ.. هوَ.. وبإمكانِنا أن نُصدِّقَ الآن أنَّه قد مات!

ولعلَّنا نزورُ قبرَه يوماً ما ونعاتبه على قرارِ رحيلهِ الأرعَن..

ليسَ من العدلِ أن تُمارسَ حريَّتَك (وإن كانت شخصيَّة) وتتخذَ قراراً هكذا بالرحيل دونَ أن تقولَ وداعاً يا ياسر...

كلُّ ما قلتَه لنا آخر يوم.. "إلى اللقاء"..

ولكنَّك لم تقلْ "وداعاً".. قَطُّ..

كعادَتها المُستحدَثة.. كذَبتْ يارا مُجدَّداً على أمِّها وأخبرتْها أنَّه بخير وأنَّه وصلَ إلى ألمانية وتمَّ إلحاقه بمخيمٍ للاجئين السوريين.. وأنَّ قوانينَ وأنظمة مُخيَّمِهِ تفرضُ عليه عدمَ التواصل مع أحد..

لكنَّه بخير وسيَسمَحونَ لهُ باستخدامِ الإنترنت والاتصال بأهلِه ما أن يتعلَّم الألمانيَّة!

لا أدري من إينَ ومتى اكتسبتُ مَهارةَ التأليفِ هذه؟ وكيفَ اختلقْتُ كلَّ هذهِ الأكاذيب المَحبُوكة لأسرُدَها لأمّي التي ما زالت تنتظرُ أن يتعلَّم هذا الأزعرُ الكسولُ اللغةَ الألمانيَّة..

أخبَرَها الجميعُ أنَّها لغةٌ صعبة وعصيَّة جدَّاً..

نعم.. ولكن ألا يستحقُّ شوقُه لأمِّهِ أن يَجتَهِدَ في تعلُّمِها؟

كنتُ أنا الأدهى وتعلَّمتُ سريعاً أن أكذبَ على أمِّي..

وربَّما استشعرَ قلبُها ذلك.. لكنَّها هي الأخرى لا تملِكُ إلا أن تكذِبَ على نفسِها وتُصدِّقَ رواياتي لها كلَّ يوم.. عن أنِّي بخير.. وأنَّ كلَّ ما تسمَعُ عنه من اشتباكاتٍ وعنفٍ وقذائف ودمار هو بعيدٌ كلَّ البُعد عن دائرتي ومُحيطي..

لم أخبرها عن القذيفة التي أخَطأتني وفريقَ عمَلي عندما كنَّا نوزِّعُ معونات إنسانيَّة على مشارفِ أحياءِ حلب الشرقيَّة..

لم أخبرها عن القنَّاص الذي تسلَّى بِنا.. وأردَى زميلاً لنا عندما كنَّا نجتازُ مُجبَرين وبِمَهارةٍ قسريَّة ما يسمُّونَه مَعبَرَ الموت أو معبر (كراج الحجز) من حيِّ المَشارِقة إلى حيِّ بستان القصر بحلب لتفقُّدِ حالاتٍ صحيّةٍ حَرِجةٍ هُناك..

رقَصْنا يومَها كما الهنودِ الحُمر.. لكن على أزيزِ الرَصاصِ!

لم أخبرها.. ولم أخبرها.. ولن أخبرَها.. لأنَّها كلُّ ما تبقّى لي في هذه الحياة وأريدُها أن تبقى بخير.. وتكفيني دعواتُها.. ليَ..... ولياسر.. (على افتراض أنَّه في ألمانية).. أن يحفَظَنا اللهُ لها ويباركَ في أعمارنا..

أحياناً تُراوِدُني فكرة أن أرتميَ في حضنِها وأخبرَها بحقيقة موتِهِ لنُجهشَ مَعاً بالبكاء على فُراقِه.. لعلّه على الأقل يَحظى بترحُّمِها عليه.. وهوَ في مرقَدِه الآن..... حيثما كان!

لكنِّي لا أريدُ استعجالَ فقدانِها.. ولا أقوى عليه..

سمعتُ ذاتَ مرَّةٍ أنَّه من مَراتِبِ برِّ الوالدين العالية ألا تخبرَهُما بما قد يقضُّ المضاجع من تفاصيل همومِك وأمورِك.. لأنَّهما سيتألَّمانِ أضعافك..

ولعلِّي اتمترسُ خلفَ هذه المعلومة لتبريرِ سلوكي وشرعَنَتِه.. والاستمتاع باليسيرِ من راحةِ الضمير..

ما علينا الآن..

انتصفَ النهار ولم أبدأ يومي بعد.. عليَّ التملُّصُ من دوَّامةِ أفكاري قبل أن تعصِفَ بمزاجي من جديد.. فتُقعدني حبيسة فراشي كالمرَّة الماضية.. لا أفعلُ شيئاً سِوى النَحيب..

لا أريدُ الاستسلامَ اليوم.. بل.. ولا أملِكُ رفاهيَّة هذا الخيار..

تحرَّكتْ يارا من المطبخ بعد أن احتسَتْ قهوتَها وتعمَّدتْ صمَّ أُذُنَيها بسمَّاعة الجوَّال وبعض الموسيقى الهادئة لتصرِفَ عنها أصواتَ الجَلَبَة والصُراخ والعَويل المُتسرِّبة من الخارج..

همَّتْ بارتداءِ مَلابسِها مُتجاهلةً اتصالات اطمئنانٍ عدَّة من أصدقائها.. لا داعي للردّ.. ولا ترغبُ بمحادثةِ أحدٍ الآن..

ستَصِلُ إلى عملها بعدَ قليل وتُطمئِنُهم شخصيَّاً على سلامة سموِّها..

مِن حُسنِ حظِّها بالأمس أنْ لا مكانَ لتَركنَ سيارتها في شارع بيتها.. فاختارت لها مَخدعاً في الزقاق الخلفيِّ وحشَرَتْها بين سيارتين مُتخاصِمَتَين.. وإلا لكانَ عليها أن تبحثَ عنها الآن بين الأنقاض..

أدارَتْ مُحرِّكَ سيارتها بعدَ البَسمَلة ونُطق الشهادتين.. كما هو حال أهل حلب وعُرْفِهِم اليوم..

يخرُج واحدُهم من بيتِه آمِلاً أن يعودَ حيَّاً وكامِلاً دون أن يفقدَ حياتَه دفعةً واحدة.. أو بالتقسيط ودونَ فوائد..

يعود دون أن يخسرَ أيَّ جزءٍ من جسده إثرَ قذيفةٍ أو رصاصةٍ ما أو حتى شظيّة..

بعضُ الشظايا مُتمرِّسٌ في انتقائِه مكانَ الإصابة!

كم هوَ مؤلم أن تموتَ أو تُقعَدَ بسبب شظيّةٍ لا تتجاوز السنتيمترين استقرَّت قربَ النخاعِ الشوكيِّ أو في الدماغ.. وما أكثرهم هذه الأيام!

لا يَرفَعُ عن كاهل روحِكَ غمامةَ هذا الكابوسِ الأسود وثقله إلا أن تجوب بسيارَتِك شوارع المدينة وتشاهد بذهولٍ كيف ارتدَتْ ثوب

الحياة صباحاً وازيَّنت مُجدَّداً كأرملةٍ فُجِعَتْ بزوجها للتَّو.. غير أنَّها لا تريدُ إخبارَ صغارها بموتِه الآن.. فأحجَمَتْ عن ارتداء اللون الأسود وحبَسَتْ دمعتها حتى إشعارٍ آخرَ.. ورقصَت معهم مقهورةً على أغنية "طيري طيري يا عصفورة"..

تخطفُك صدفةً وأنتَ في السيارة تردُّدات شام إف إم إلى أغنية (يا مال الشام).. إحدى أشهر أغاني القدود الحلبيَّة.. لتتلمَّسَ بأصابع أذنَيكَ جمالَها وسِحرَ وقعِها المُفاجِئ!

تُحيِّرُني هذه الظاهرة!

نضعُ الأغنية ذاتَها عن سابق إصرارٍ وتصميمٍ في مُشَغِّلِ الأغاني لسماعِها.. لكنَّها لا تُسعِدُنا بالقدر الذي ننتشي ونطرب لها فيه عندما تقفز من الراديو على حين غرَّة لتُباغتَ مَسامِعنا وبدون تخطيطٍ مُسبَق..

كم أحبُّ هنا آليَّةَ النكوصِ إلى الماضي.. وتَداعِياتِها!!

فكرَّتْ يارا.....

حَلَـب

قد يكفي أن تلفظَ اسمَها لتعتريكَ رغبةٌ عارمة في تناولِ الطعام حتى وإنْ كنتَ مُتخَماً!

لا يتطلَّبُ الأمرُ مَعدةً خاويةً.. هوَ جوعٌ سِريالِيٌّ ينبُعُ من العقلِ الباطن.. من حقيقة أنَّ أهلَ هذه المدينة يستحقُّونَ جائزة نوبل في فنِّ الطبخِ والذَوقِ العام في الطعام..

يُجيدونَ اقتناصَ وانتزاعَ المُتَعِ حتى آخر قطرةٍ من كلِّ نعمة.. وكبراعتهم في ترتيبِ وهندسةِ صفقاتِ زواجِ الصَالونات.. هم بارعونَ أيضاً في زواج نكهاتِ الطعام لتلِدَ ولادةً طبيعيَّة أو قيصريَّة نكهاتٍ جديدة ما كنتَ لتكافِئَ بها حُليماتِ لسانِكَ الذوقيَّة أو تخطُرَ على بالِ مَعدتك لولا مَلَكَةُ استنباطِ اللذَّة التي يتمتَّعُ بها الحلبيُّ..

وإلا..... كيفَ نُفسِّرُ إمكانيَّة مُزاوجَة (المامونيَّة) المُشبَعةِ بالسكرِ مع الجبنةِ البيضاء المالحة؟

و(المامونيَّة) تلك هي أساساً سميدٌ مُحَمَّصٌ بالسَمنِ مع السكَّرِ والماء أو الحليب..

ثم هل هناكَ أشهَرُ من الكبب الحلبية؟

خليطٌ من البرغلِ المَعجونِ بالماء.. يُنحَتُ ليشكِّلَ رَحِماً يحمِلُ في جوفِهِ ما لذَّ وطاب من اللحمِ والبصلِ والمُكسَّرَاتِ المُحمَّصَةِ التي كانَ يتَزعَّمُها الصنوبر.. لولا أنَّ الحرب ألقَتْ بثِقلِها حتَّى على تلك الكبب.. ليُستعاضَ عن صنوبر الأكابر بفستق الدراويش..

وهل نتوقفُ عن أكلِ الكبَّة لمجردِ أنَّ أسعارَ الصنوبر أصبحت فلكيَّة؟ لا.. لن يكون هذا..

وماذا لو تحدَّثنا عن السَفَرجليَّة؟

لا بدَّ وأنَّكم تعرفون ثمارَ السَفَرجَل.. تلك الثمارُ المُرَّة اللاذِعَة التي يُضرَبُ بِها المَثلُ بالغصّة.. والتي لا نتوقع أن يهذيَ لساننا بها عِشقاً بعد تناولها مَطبوخةً بمرقِ دبس الرمَّان وكراديشِ اللحم..

يُذهِلُك طعمُها الحامض الحلو في آنٍ معاً عندما يَطهُوها أهلُ حلبَ مع المرقة واللحم.. لتعودَ مرَّاتٍ ومرَّات فتتذوقَها من جديد بحجَّةِ أنَّكَ تريدُ أن تحسِمَ الأمرَ.. أهيَ حلوةٌ أم حامِضة؟ ولنْ تحسِمَهُ البَتَّة!

ولَعلَّنا أسقَطْنا سَهوَاً شَريكاً رئيسياً مُهمَّاً وراعياً رسميَّاً في قائمة أصنافِ الطعام هنا.. وهل تُنطَقُ كلمةُ الكبب دون أن تسبِقَها كلمة المَحاشي؟ حتى أصبحَ الأمرُ أشبه بمصطلحٍ قد يُدرَجُ مع الوقت في قواميسِ اللغاتِ وأطلسِ الرموزِ الجغرافية..

"حلب.. أرضُ المَحاشي والكبَب"..

ولا نريدُ أن نخوض في سيرة اليبرق والسماقيَّة والقبيوات.. رأفةً بمشاعرِنا التي تتضوَّر جُوعاً قبل مَعِدَتِنا.....

لا عجبَ أنَّ صفحات مواقع التواصُل الاجتماعيِّ بَاتَتْ تَعجُّ بأخبار المَطاعم الحلبيَّة المُهاجرة والتي ذاعَ صيتُها حتى في أصناف الطعام غير المُتأصلة من تلك المدينة.. بعد أن فرشَت ما أتيحَ لها من عَتاد مطبخها على عجلٍ في الكثير من البلدان العربية والأجنبية من محلات الحلو العربي المُرصَّعِ بالفستق الحلبيِّ.. والشاورما التي غزَت قلوبَ زبائِنها قبل بطونِهم.. أيَّاً كانت جنسياتهم.. ومَشاربهم..

القصَّة قصَّةُ عشقٍ حلالٍ بين الحلبيِّ ومعدَتِه.. هو يحبُّ أن يدلِّلها.. ولا أمهَر مِنهُ في ذلك..

مُعادلاتٌ قد لا يفهمها الكثيرون لكنَّها ليست مُستحيلةَ الحلِّ..

وكأنَّه مُنعَكَسٌ شرطيٌّ لا إراديٌّ جديدٌ كان على بافلوف أن يدرُسَهُ..

كلمةُ (حلب) تسوقُ إلى أرشيفِ ذاكرة أنفِكَ روائحَ طيِّباتِ ما حفلَتْ به مطابخ الخيرِ على مدى عقود.. لتحرِّضَ شهيَّتَكَ على الأكلِ وتدشين

الموائد قَسْراً.. وليس أجمل من قرقعة وجلَبَة الصحون والملاعق التي تُسمَع أصواتُها مَساءً وهي تتسرَّب من نوافذِ الشُقَق مصحوبةً بروائحِ الطبخِ الزكيَّة.. لدى تناول طعام الغداء المتأخرِ عادةً في حلب..

ولا تقتصرُ العراقةُ على الطعام فحسب.. فحلب... "وهي العاصمة الاقتصادية لسورية".. من أقدمِ المدن المأهولةِ بالسكان..

أهلُها تجَّارٌ وصُنَّاعٌ معاً.. في نقطة التقاءٍ حضاريٍّ ثقافيٍّ بين الشرق والغرب..

اشتهرَتْ بصناعاتها العَريقةِ المعروفةِ منذ القِدَم.. كصناعات النسيج.. من الصباغة.. الدباغة.. وحلج الأقطان.. حتى باتت تُكنى بها عوائل أصيلة.. كصبّاغ.. دبّاغ.. قطّان..

وهناك صناعة صابون الغار.. وصناعات زيت الزيتون والصناعات الغذائية.. وأنواعٌ كثيرة من المنتجات والصناعات التقليدية وصياغة المَشغولات الذهبية.. إضافةً إلى الصناعات الحديثة المتطورة كالملابس الجاهزة والبلاستيك والصناعات الكيميائية..

باختصار... هيَ قلعةُ العطاءِ التي أُصيبَتْ في مَقتَل....

لا يصحُّ أن تزورَ حلب دونَ أن تُعَرِّجَ على خاناتها.. أبوابها.. حمَّاماتها.. وأسواق (المْدينة) -بالتسكين القسري للميم حتى وإن التقى الساكنين- تلك الأسواق الأثرية القديمة بطابعها العمرانيِّ الجميل.. أطول الأسواق المَسقوفة في العالم.. بحجارة أرضها المستطيلة المرصوفة جنباً إلى جنب.. والتي لا تدري كيف يمكن للنسوة المُتبضِّعَاتِ أن يمشينَ فيها بكعوبِهنَّ العالية تلك!

أكثر من ثلاثين سوقاً يختصُّ كلٌّ منها بحرفةٍ أو صناعةٍ أو نوعٍ معينٍ من المَبيعات..

سوق السقطيَّة.. سوق الفرَّائين.. العطَّارين.. الخيش.. الصابون.. العبي.. الصاغة.. الجوخ.. وغيرها..

سوقُ (الشام) وسوق (إسطنبول)..

إسطنبول كلها اختُزِلت في أسواق المدينة!!

و(اتفضلي يا خانوم)..

يُهيمنُ على المشهدِ برمَّتِه جوٌّ من الأصالةِ التي تُخرِجُكَ مِن عُنُقِ قنينةِ المُعَاصَرة.. لتتنفسَ شيئاً من عَبَقِ الماضي العريق.. فلا ترغب بالعودةَ مُجدَّداً إلى القنينةِ وأنتَ تُجاورُ هنا قلعةَ حلب المَهيبة التي بقيَتْ شامِخة تراقبُ كلَّ ما دارَ حولَها من معارك صبيانية شوَّهَت معظم المعالم الأثريّة وأرهَقَتها.. وليسَ الجامع الكبير ببعيدٍ عن ذلك..

حقاً.. قد تُشتَرى الحَداثةُ وتُستَجلبُ.. أما العراقةُ فلا ثمنَ لها.. إما أن تكون أو لا تكون.....

لا يَستَسيغُ رجالُ حلبَ العيش بدون عملٍ.. حتى المُقتَدرين والمَيسورين منهم.. فالأمرُ لا يتعلَّقُ بالحاجةِ الماديَّةِ فَحَسب.. العمل بحرفةٍ أو صنعةٍ أو صفقةٍ في تجارةٍ ما.. هو شرطٌ لازمٌ وغير كافٍ لتكونَ رجلاً حقيقاً.. لا تغريهم كثيراً الوظائف الحكومية.. ويتجنبون قدر المستطاع وضع رقابهم في يد زبانية نظام الحكم.. موَّالهم من رأسهم في لقمة عيشهم كما يقال..

ترى ربَّ العملِ يتصدَّرُ مكانَ عملهِ حتى آخر النهار.. يأمرُ وينهى ويوبِّخُ غُلمانه.. ثم تكتشفُ أنَّ أحدهم هو ابنه الذي وُلِد وفي فمِه مِلعقةٌ من ذهب.. لكن أباهُ آثرَ انتزاعها من فمه.. وزجَّه بين العاملين والأُجَراء.. لَعَلَّ حاجَته تدفعه للحصولِ على ملعقةٍ أخرى بعرق جبينه.. فيصنع مِنه رجلاً.. ابن رجل..

ولأن أهل حلب لا يعدمون الوسيلة.. ولأنهم يجيدون تدبُّرَ أمورهم والتعاطي مع متغيرات الظروف.. فقد عانوا على مدى عقود إهمالاً مُتعمَّداً من حكومات الأسدَين المُتعاقبة التي لطالما اعتبرتهم الدجاجة

التي تبيض ذهباً.. فتفنَّنَت في ابتزازهم خدمياً وساومتهم على مقومات حياتهم.. تارةً بشكلٍ أنيقٍ وغير مباشر.. وأخرى بشكلٍ فجٍّ ومكشوف..

وتضخَّمَ حجم المُعاناة مع تفجُّرِ أحداث الثورة والتكشير عن أنياب الأسد.. فعانوا الأمرَّين كغيرهم من السوريين..

بعضُ التجَّار وأصحاب المهن والمحلات اضطرَّ إلى ترك مكان عمله.. خاصَّةً مَن كان منهم في حلب الشرقية ونزحَ تحت وطأةِ القصف إلى الأحياء الغربية مع احتدامِ المعارك والاشتباكات..

خسرَ محلَّه ونجا بمهارتِهِ.. فتراهُ يفترشُ الرصيف بمعدَّاته المُتواضعة التي بالكاد تفي بالغرض.. ويستأنف الاسترزاق بأضعفِ الإمكانيات.. ولكن بما يُرضي الله..

كأن ترى أبا محمود.. حلواني حيِّ الشعَّار.. صافَّاً صوانيه المختومة بالكرابيج والمعمول فوق مَنصَبٍ حديديٍّ مُتواضعٍ على الرصيف.. فتستخفُّ به للوهلة الأولى.. لكن عندما تعلم أنَّه صاحب مُجمَّع حلويات الشعَّار سابقاً.. ومِلكُ المعجنات والحلويات في حيِّه.. يستفزك الفضول ليدفعَك فتبتاع منه.. ويراهنُ الجميعُ أنَّكَ لن تندمَ..

ومثله أبو صالح.. حلاقُ حيِّ السكَّري.. تركَ حيَّهُ واقتطع من الرصيف المُحاذي لسور حديقة السبيل مِترين بمِترين.. وصنع جدراناً وسقفاً من النايلون السميك الشفَّاف لمحله الجديد.. واضعاً كرسيَّ الحلاقة أمامه.. وعدَّتهُ في خِرْجٍ صغيرٍ تزنَّرَ بهِ.. ومقصّه في يده.. وبابتسامةِ تحدٍ للبطالة.. استقبلَ أوَّلَ زبونٍ لهُ.. و.. (نعيماً)..

باختصار..

حلب ومع كلِّ مُسبِّبات المَوت التي تخيِّمُ على سمائِها اليوم.. مدينةٌ تنبضُ بالحياة.. تسقط فيها القذيفة تلوَ الأخرى على سوقٍ ما.. لتُرديَ بعض الأبرياء.. فتُخضِّبَ دماؤهُم الأرصفةَ وجنباتِ الطريق.. وتنفَضُّ التجمُّعات لبعضِ الوقت.. ويسودُ الوُجُومُ قليلاً..

ثم ماذا؟

ثم يعود كلُّ شيءٍ إلى سِياقِه!!

أصواتُ الباعةِ وتزاحُمُ الزبائن..

يُعاودُ كلُّ بائعٍ مُتجوِّل بَسْطَ بضاعَته في المكان ذاتِهِ وفوق الرقعةِ ذاتِها التي غُسِلت من عليها الدماء منذ دقائق.. وليتها جفَّتْ!

ليسَ استخفافاً أو انتِقاصاً من هَيبةِ الموت.. ولا تَبلُّداً للمشاعر..

لكنَّه تَشَبُّثٌ بما تبقَّى من الحياة.. وعقيدةٌ راسخةٌ أنَّ هذه الروح لا يقبضُها إلا خالقُها ولكلِّ أجلٍ كتاب..

ولعلَّ من ماتَ قبل قليلٍ قد ارتاح.. بل يكادُ البعض يحسده دون أن يملكَ شجاعةَ الاعتراف بذلك..

{وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا}.. الحمدُ لله على نعمةِ الإيمان واليَقين..

لولاهما لَمَا خرج ابنُ أَمَةٍ من بيتِه هُنا.. ولكن على هذه الحياة أن تستمر حتى بمآسيها.. فويلاتُ الحربِ كما يقول العامَّةُ (كاس لكلِّ الناس).. يَطالُ أذاها كلَّ مَن عايَشها.. وكان في مَداها.. مع تفاوتِ الضَررِ كمَّاً ونوعاً بين هذا وذاك..

تأخَّرتْ يارا اليوم.. وبدلاً من أن تستعجلَ التوجُّهَ إلى مَقرِّ عملِها تَراها تجوبُ أرجاءَ المدينةِ وتقودُ سيارتَها بتؤدةٍ وكأنَّها تريدُ أن تتفقَّدَ أحياءَ (حَلَبِها) وشوارعَها وتَطمئِنَّ عليها..

تُرى هل من صاروخٍ ثانٍ عَكَّرَ صفوَ صباحِ أُناسٍ آخَرين؟

يأتي صوتُ أذان الظُهر من مِئذنة مسجد عبد الله بن عباس في حيِّ الفرقان ليقاطعَ أغاني الراديو فتطفئها وتركُن سيارتَها جانباً بمُحاذاة سور المسجد الأنيق.. لتُنصِتَ بكلِّ جوارحِها وأحزانها وأمانيِّها

المَكبوتة... وكأنَّ بينها وبين الأذانِ سرٌّ تريد أن تبوحَ به بعد هذا الإنصات..

يُذَكِّرُها الأذان دائماً بالحاجَّة ناديا.. وكيف اعتادتْ أن تُتَمتِمَ معه بالتسبيحات وتهمِسَ بالدعاء.. مُرتديةً وبكلِّ وقارٍ طقمَ صلاتها الأبيض الذي تعبقُ منه على الدوامِ رائحة مُعطِّر الغسيل.. وتكسوه تزهيرةٌ خضراءُ ناعمة.. تتماشى مع اللون الزيتيِّ لدفَّتَيّ مُصحفها المُهتَرئَتَين..

هي ترفضُ استبدالَ مُصحفِها القديم بآخرَ جديد.. لقناعتِها أنَّه كلَّما ازداد اهتراء دفَّتَي المُصحف – لكثرةِ استخدامه – كلما كانت النفسُ سليمةً وتعافتْ الروح والعكس بالعكس..

وطبعاً لا بُدَّ من سبحةٍ خضراءَ أيضاً في يدها أو عدَّادة تسبيح إلكترونية ولكن خضراء حصراً.. تستعينُ بها في التسبيح عندما يشتَدُّ ألمُ عصبِ يدها اليمنى فيمنعها من تحريك حبَّات السبحة..

الأناقة عند الحاجَّة ناديا مطلوبة في كلِّ شيء.. فما بالكم بأناقة اللقاء مع الله.. الأكبَر....

لم تتمالكْ يارا نفسَها مع سماع تكبيرات الأذان وأجهَشَتْ بالبكاء مُتَّكِئةً على مِقوَدِ سيارتِها..

"لا.. لستُ قويَّةً للحدِّ الذي أدَّعي.. لقد تعبتُ يا الله.. تعبتُ من التظاهر بالقوَّة.. أستطيعُ أن أخفيَ ضعفي وقلَّة حيلتي عن الجميع.. لكنَّك تراني وتعلم.. وصوتُ الأذان يُجبرني على البوح والاعتراف.. وأنا مرتاحةٌ بذلك رغم كل هذي الدموع..

تجتاحُني الآن كلماتُ سيِّدنا يعقوب **{ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وحزني إلى الله}**

وأنا أشكو بثّي وحزني إليكَ وأنتَ الأكبرُ.. يا الله!

وما من سلطةٍ أكبر منك أهلٌ لأن أبُثَّها شكواي.. بل ما من سَميعٍ مُهيمنٍ غيرك..

يحتاجُ المرء بين الفينة والأخرى للبكاء تماماً كحاجته للضحك.. وحريٌّ بنا أن نتقبَّلَ ذلك لا أن نكبِتَه ونُكابرَ.. فهو الدليل على أنَّ إنسانيتَّنا ومشاعرَنا ما زالت بخير.. تعمل وتتنفس.. حيَّةٌ ترزق.. لكنَّها تتطلَّبُ صوتاً يوقظها من غيبوبتها.. وصوت هذا الأذان كفيلٌ بذلك..

كانت بحاجةٍ لتفريغ شحناتِ ألمِها.. عجزِها.. غضبِها.. وخيبتِها معاً في علبة المحارمِ الورقيَّةِ.. بعد ما شهدَتْه صباحَ اليوم..

صحيحٌ أنَّها بدَتْ لا مُبالية وغير آبهة وهي تحتسي قهوتها الصباحية معتادةً على التعاطي مع قصص الموتِ والمصائب ورؤيةِ الأشلاء والمصابين ببرودٍ يستفزُكَ ويجعلُكَ تغلي.. لكنَّها في حقيقة الأمر تقبعُ في حالةِ صدمةٍ فصلَتْها عن الواقع..

هيَ جِدُّ هشَّة من الداخل.. وأضعفُ من أن تتقبَّلَ موتَ عصفور...

لكنَّنا نهربُ أحياناً من فَرطِ ضعفِنا.. لنُجبَرَ على تصنُّعِ القوَّةِ.. وارتداء قناعِ الصَلابة..

نكذبُ الكذبة ونُصَدِّقُها.. فنركن مشاعرنا جانباً لأنَّها قد تُهلكنا وتُطيح بنا إن تمادَت وسلَّمنا لتَماديها.. وما من مَهربٍ أو خيارٍ آخر..

مكتبُ المَصائب

سُرعانَ ما حَرَّكها صوتُ رشقات الرصاص المُتفجِّر الذي اقترب من المكان فجأة.. بعد أن استوقفها صوتُ الأذان..

اشتباكاتٌ يصلُ صداها شيئاً فشيئاً من جهة حيِّ الزهراء المُتاخم.. وليس من الحكمة البقاء هنا مُطوَّلاً..

أدارت مُحرِّك سيارتها واتجهت صوبَ مقرِّ عملها في حيِّ الإذاعة..

هو مكتبُ ارتباطٍ بوكالةِ الإغاثة التي تعملُ لصالحها في الطابق الثاني من أحد المباني المُطلة على القلعة والتي حالفها الحظ وبقي عمودها الفقري قادراً على حملها..

فريق عملها لا يتجاوز العشرة أشخاص.. هم خفيفو الظلِّ.. متعاونون.. والأهم.. يحبُّون يارا ويتحملون نسختها الثانية المُتحوِّلة والمُعدَّلة وراثياً.. التي تبدو في كثيرٍ من الأحيان فظَّة.. مُستفِزَّة.. وغير منطقية..

ربَّما بسبب ما اختبرته من ضغوطٍ استثنائيةٍ في هذه الحياة.. ربَّما!

ها هو سعد.. وكالمُعتاد.. يقفُ أمام المبنى جوَّاله بيمينه لا ينفكُّ يتصلُ بيارا.. وفي يدِهِ اليُسرى سيجارتُه العاشرة لهذا اليوم..

ما أن رآها حتى انفرَجَت أساريرُه وابتسمَ.. ثم تذكَّرَ أنَّه مُستاءٌ مِنها فاكفهرَّ مُجدَّداً وتجهَّمَ في انتظار أن تركنَ سيارَتَها وتقترب..

"هناك اختراعٌ يُسمُّونَه الجوَّال.. كان بإمكانِكِ أن تتصلي لطمأنَتِنا عنك.. أوعلى الأقل كلِّفي خاطرك وأجيبي على واحد من عشرين اتصالٍ لي.. لو لم اتصل بالخالة أم ياسر وتخبرني أنَّها كلَّمَتكِ وأنَّك بخير لكنتُ الآن على باب شقتك.. وأصواتُ شجارنا تعلو صوتَ القذائف..

ما بكِ يارا؟ علامَ كلُّ هذا الاستهتار؟؟

أيستهويكِ اللعبُ بأعصَابي؟ لا شكَّ أنَّكِ تُجيدينَ ذلك"..

"عُدتَ للتدخين مُجدَّداً؟؟ يا لسرعتكَ في نقضِ العهود!!"..

"أهذا كلُّ ما يشغلُكِ الآن؟ عجباً لبرودِكِ! وتبَّاً لتلكَ السجائر التي سأتحرَّر منها يوماً ما.. ولعلِّي أتحرَّر من غيرها أيضاً..

أخبرُكِ أمراً؟ أنتِ السبب.. لو أنَّك ببساطة أجبتِ على اتصاليَ الأوَّل هذا الصباح وتحدثتِ معي ولو لدقيقة.. لما قفزَ في وجهي ١٠٠ شيطانٍ.. كلُّ واحدٍ منهم يحملُ وسواساً وسيجارةً"..

"أخبرُكَ أمراً؟ حقاً.. على الرجلِ أن يكونَ مُمتنّاً لوجودِ المرأة في حياته.. فلولاها كيف سيبرِّرُ كلَّ أخطائِه وهفواتِه؟

أنتم لا تُخطِؤون إلا بسَببنا ولشيءٍ فعلناهُ نحنُ.. أنتم ردودُ أفعالِنا الشريرة دائماً.. ونحنُ الأفعال السيئةُ التي قد تسبِّبُ دمارَ البشريَّة.. مسكينٌ هو الرجلُ الذي لا امرأةَ في حياتِه..

كيفَ سيبرِّرُ خيباتِه؟ على مَن سيُلقي اللومَ في أفعاله؟

حتماً سيلوم المرأة التي لم تأتِ بعد ويُحاكمها غِيابيَّاً.. وقد يلومها لأنَّها لم تأتِ أصلاً!!

لعلَّهُ نابليون من قالَ "فتِّشْ عن المرأة".. كانَ حريَّاً بهِ أن يُردِفَ قائلاً:

(وألصقْ بها ما يَسَعُكَ من نكباتِ وخيباتِ وعثراتِ هذا العالَم)..

لا رغبة ليَ بالشجار الآن.. وآخر ما أتمنَّاه معركة أعصابٍ أخرى يا سعد.. دعني وَعُدْ إلى سجائرك وطبطبتِها عليك.. حسناً لنرَ ما لدينا اليوم من قصصٍ ومَهام"..

دخلَتْ مكتَبَها في عُجالة دونَ أن تلاحظ زحمةَ الناسِ المُنتظرين في غرفة الاستقبال.. تبعتها صديقتُها بَسمَة وفي يدها ملفات المُراجعين من ذوي الاحتياجاتِ الخاصَّةِ.. بل وذوي المصائبِ الخاصَّةِ.. مُشيرةً

بإيماءةٍ من عينيها صوبَ امرأةٍ تجلس بهدوءٍ ورصانةٍ على كرسيٍّ في زاويةِ الغُرفة.. ترتدي مِعطفها الأسودَ الطويل.. وتغطي نصف وجهها بخمارٍ يشبه اليشمق.. يُسميه أهلُ حلبَ "باتشاي".. وتشبكُ كفَّها بكفِّ طفلِها الصغير (حامد) ذي الأعوام الثلاثة..

"أمُّ يوسُف.. تنتظركِ منذُ الصباح يا يارا.. ولا تريدُ الإفصاحَ عن حاجتها لغيرك".. همَسَتْ بَسمَة..

نظرَتْ يارا إلى الصغير فأشرقَتْ على وجهِها ابتسامةٌ فرَّغَتْ بها كلَّ شحناتِ التوتُّر التي اعترتْها اليوم..

حامد أيضاً.. وبتفاعلٍ انعكاسي.. ابتسمَ لها لتظهرَ أسنانُه الصغيرة المتعرجةُ كأسنانِ الدلفين...

أفلَتَ يدَ أمِّهِ ليركضَ نحوها وكأنَّهُ رأى في ابتسامتِها تأشيرةَ اقتحامٍ لقلبِها.. وإيعازاً بالتحرِّكِ.. لا بل بالتحرُّرِ من قيودِ توصياتِ أمِّه.. وكَرتاً أخضراً ليَتمادى قليلاً فيتمرَّدَ على قائمة التعليمات والأوامر والنواهي التي ما انفكَّتْ تُمليها عليه منذُ الصباح.. حتى ضاعَ أوَّلُها في آخرِها..

لا تتحرَّكْ.. لا تبكِ.. أخرِجْ إصبَعَكَ من فمك.. اتركْ الكرسي.. لا تُصدِرْ هذا الصوت.. عَيب.. لا يجوز.. لا ولا... وألفُ لا..

ركضَ باتجاه يارا ليتمترسَ خلفَ مكتبِها.. اندسَّ في حِجرها.. بين ذراعيها.. وبالكاد ظهرَ شعر رأسِه الأشعث من وراءِ الطاولة..

"انظروا مَن عندنا اليوم.. حمُّودَة أفندي.. كيفَ حالُك أيُّها المُشاغب؟

هل اشتقتَ إليَّ كما اشتقتُ إليك؟"...

هزَّ حامد رأسَه مُصادقاً على اشتياقِهِ.. ومُستَرِقاً بضعَ نظراتٍ إلى يارا بطرْفِ عينِه.. ثم أطرقَ رأسَه أرضاً.. وهو يذوب استحياءً..

من قالَ أنَّ الأطفال لا يَعشقون؟

هو عاشقٌ من الطرازِ الرفيع.. يحبُّ يارا ويعرفها منذ عامٍ ونصف.. لم يحمِلهُ لتكبُّدِ عبءِ الانتظار مُطوَّلاً هذا الصباح إلا حبُّه لها..

كيف لا؟ وهي الفتاةُ الجميلةُ الحنونَةُ التي تأتي له دائماً بالحلوى والمَعونات الغذائية الشهريَّة والأدوية..

تلعبُ معهُ وتمازحُه وتبدي اهتماماً لم يختبر مثيلَهُ في عمرِه الذي هو أقصرُ من عمرِ هذه الحرب الشعواء..

هو في جوعٍ عاطفيٍّ لأيِّ كلمة مديحٍ وإطراءٍ تنفضُ الغبارَ عن قلبه المُثقل بهمومِ الحرب وأهلِها.. تلك الحربُ الرَعناءُ التي جَرَّدَتْ الكبارَ من سخائِهم العاطفيِّ.. وصادَرَتْ مُستحقَّات الأطفالِ العاطفيةِ والروحيَّةِ وانتزعتها منهم عنوةً..

للأطفال ذاكرةٌ مُخيفةٌ قد نَستهينُ بها.. لكنَّهم يسجِّلونَ كلَّ شيءٍ.. وتلتقطُ راداراتُ وحسَّاساتُ قلوبِهم الصغيرة بوسائلِ استشعارِها عن بُعد ما تعجزُ فراسة الكبارِ عن التقاطِهِ.. هم بالفطرةِ يتحسَّسونَ النقاء وينفرونَ من النِفاق..

"حسناً يا أمّ يوسف.. كيفَ حالك؟ هل من شكاوى على هذا القطِّ الصغيرِ؟"... قالت يارا مُمازِحةً وهي تمسَحُ شعرَ حامد مُشيرةً إلى أمِّهِ بيدِها الأخرى لتجلسَ على كرسيٍّ قريبٍ أمامَ الطاولة..

نهضَتْ أمُّ يوسفَ بتحفظٍ وعلى وجهِها نصفُ ابتسامةٍ مُرتَبكةٍ مَشوبةٍ بالقلق.. صافحتْ يارا وجلستْ على الكرسيِّ المُحاذي لمَكتبِها..

"الحمدُ لله نحنُ بخيرٍ وبألف نعمةٍ وفضلٍ من الله".. ثم نظرَتْ إلى حامد بتكشيرةٍ مُفتَعلة... "وحامد لا مثيلَ لهُ".. وكأنَّها تقصِدُ لا مَثيل له في الشغبِ وإثارةِ المَتاعب..

"لا أريدُ أن آخذ الكثير من وقتك يا آنسة يارا.. كنتِ دائماً عوناً لنا وبلسماً في زمنِ الجراح العميقةِ هذا.. ويعلمُ الله حجم مَحبَتك في

قلوبنا.. أكرهُ أن أثقِلَ عليكِ.. ولكنَّني في مأزقٍ وعليَّ أن أطرقَ كلَّ الأبواب"..

"خير إن شاءَ الله؟

بَسمَة اصطحبي حامد لغرفةِ الرسم قليلاً ليُرِيَنا إبداعاتِه الفنيَّةَ اليوم"..

أوعَزَتْ يارا لبَسمَة وكأنَّها استشعرَتْ أنَّ ثمة ما لا ينبغي للصغير سماعه..

أمُّ يوسُفَ.. بديعة... شابَّةٌ ثلاثينية تنحدِرُ من إحدى قرى ريف حلب الشمالي.. تزوَّجتْ قبل الحرب من رجلٍ حلبيٍّ وأقامَت معَهُ في حلب الشرقيَّة.. وأنجبَتْ ابنَها البِكرَ يوسف وابنتَها رغَدَ.. إلى أن طالَتهُم قذيفةُ حقدٍ.. أودَتْ بحياةِ زوجِها وابنِها يوسف.. وأعطَبَتْ ابنتَها رغَد مُسبِّبةً لها عَجزاً جزئياً في الحَركةِ..

أهلُها ومع اشتدادِ سعيرِ الحربِ اضطروا للنزوح إلى مدينة غازي عينتاب التركيَّة.. فبقيَتْ وحيدةً مع ابنتِها المُصَابة وتقطَّعَتْ بِها السُبُل.. وبحثاً عن مُعيلٍ يكفلها وابنتها أُجبِرَت كالعديد من قريناتها على الزواجِ ثانيةً من رجلٍ غريبٍ هذه المرَّة.. هو أحدُ الوافِدين الأجانب الذين يُطلِقونَ على أنفسِهِم لقبَ مُجاهِدين!

هي لا تعرفُ اسمَهُ حتى.. تعرفُ فقط أنَّه أبو المَنصور الذي جاءَ من وراء البحار... ليحرِّرَ حلب!!!!!!

هذا على الأقل ما أخبَرَها به.. والباقي على حدِّ قولِه لا يعنِيها..

لا يقدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ!

أسقَطَتْ عنها بعد زواجِها الثاني لقبَ أم يوسف كُرمى لأبي المَنصور وعادَت (بديعة).. إلى أن أنجبَتْ (حامد) وتوَّجَها أبو المنصور هذا بلقبِ أمِّ حامد.. ولكن حامد ماذا؟ حامد بنُ أبي المَنصور؟

لا أوراقَ رسميَّة تنسبُ الطفلَ إلى والده.. لا أسماءَ حقيقيَّة!

بعضُ الأطفال الذين عانوا من هذه المُشكلة تمَّ نسبُهم لاحقاً إلى جدِّهم من أمِّهم.. فليسَ إلا ورقة واحدة لمؤسسةِ الزواجِ العتيدة تِلك..

عقدُ قرانٍ بشاهدَين.. بلا حقوقٍ ضامِنةٍ.. واسمُ العريس فيه مُستعار!

كانَت كالمُستجير من الرَمضاءِ بالنار.. وهي التي تعشَّمَتْ أن ترميَ حِمْلها على شريكٍ يشاطِرُها عِبءَ الحياة.. فشاطَرَها الفِراش وحَسْب ثم رحل.. بعد أثقلَ كاهِلَها بحِملٍ آخر.. بطفلٍ آخر! وعادت لتُكنَّى بأمِّ يوسف بعدَ رحيلِه..

لا أوراقَ رسميَّة لحامد تكفُل مُستحقَّاتِه لدى الحكومة.. أو حتى تعترفُ بهِ.. وأمُّه بالكاد تستطيعُ أن تعبُر من شرقِ حلبَ إلى غربِها لتزور يارا فتلبِّيَ لها بعضَ حاجاتِها..

هي تُقنِّنُ من تحرُّكاتِها هُنا مَخافَة أن يستوقِفَها أحدٌ صدفَةً ويدَقِّقَ في سجِلها الحافلِ بالمُخالفات..

فزوجُها الأوَّل كانَ مَطلوباً من أمن النظام السوري وتُهمته المُعلبّة الجاهزة كالمُعتاد هي الإرهاب.. وزوجُها الثاني (إن صحَّ التعبيرُ وصحَّ الزواج) لا يقلُّ أهميةً عن الأوَّل.. وبديعة هائمةٌ على وجهِها مع أولادِها بين الزواجَين..

لعلَّها بذرةُ الخيرِ التي زرَعَها اللهُ في جيرانها الطيِّبين مِن أهلِ حلبَ الشرقيَّةَ حيث تُقيمُ الآن هي التي أمَدَّتْها بما يكفي من نسغِ الحياة لتستمرَّ وتقوى على تربية يتيمَتِها رَغَد وابنها حامد..

مِسكينٌ هو هذا الحامد.. لم يحظَ حتى بلقبِ يتيم.. لم تَطَلْه مكارمُ الأبوَّة ولا حظوة اليُتم..

لو أنَّ أباهُ ميِّتٌ الآن لكان على الأقل مَحطَّ أنظارِ وعطفِ الخيِّرين.. فبعضهم يحرصُ ويشدِّدُ على أن تذهبَ صدقاتُه للأيتام حصراً.. وما أكثر مَن في حُكمِهم اليومَ دونَ عطاءٍ!

ما أكثر من هم على قيدِ اليُتم.. وآباؤهم على قيدِ الحياة..

أهلُ الخير رتَّبوا لليتيمة رَغَد قبولاً للعلاج في ألمانية على نفقةِ إحدى المُنظَّمَاتِ الإنسانية.. ويعملُ بعضُهم الآن على إتمام أوراقِ سَفرِها.. لكن المُعضلة هنا.. أنَّه لا يُسمَحُ إلا بمُرافقٍ واحدٍ فقط لهذه الحالةِ الإنسانيَّة..

وحامدٌ كالعادة هو الفائض الذي لا مُتَّسَعَ لهُ.. هو عُقدة المُنشار الآن.. وأمّه مُجبرةٌ على إيداعه في مَكان آمنٍ لحينِ استكمالِ العلاج.. أو ربَّما حتى إشعارٍ آخر..

"طلبُكِ مُستحيلٌ يا أم يوسف.. كيفَ لنَا أن نعثرَ على عائلةٍ تتكفَّلُ بحامد ولا أوراقَ ثبوتيَّةَ لهُ.. ولا تريدين أن نُلحِقَهُ بدارٍ للأيتام أو مَجهُوليِّ النَسَب! أستطيعُ أن أضمنَ لكِ تسجيلَه في دارٍ للأيتام دونَ أوراق..

حدثَ هذا كثيراً وعندنا جهات تتكفلُ بمُتابعةِ مثل هذه الحَالات.. لكنَّكِ تطلبينَ عائلةً مُؤقتةً لابنك.. تريدينَ رهنَهُ ثم استرجاعَهُ.. وهذا شِبهُ مُستحيل"...

"أرجوكِ آنِسة يارا.. لا أريدُ لابني أن يعيشَ في المَيتَم..

نحنُ في حَرب... ولا يستطيعُ أحدٌ التَكهُّنَ بمستقبلِه حينَها.. وقد لا أتمكَّنَ لاحقاً من إثباتِ أمومَتي له بسهولة.. أو حق استعادةِ حضانتِه بدون ثبوتيات..

لا بُدَّ مِن وجودِ عائِلاتٍ طَيِّبةٍ تعرِفِينَها قدْ تقبَلُ أن تتكفَّلَ برعايتِه لبعضِ الوقت لوجهِ الله دونَ أن تتملَّكَهُ..

أنتِ على تواصلٍ دائمٍ بأهل الخير هُنا.. والوضع في حلب الغربيَّة أكثر أماناً من شرقِها.. وأهلي في تركية منذ سنتَين ولا مجالَ لائتمانِ أحدٍ غيرك عليه..

أعرفُكِ جَيداً ولا أثِقُ بِسواكِ.. فَضلاً عن أنَّهُ يحبُّكِ كثيراً ولن يشعر بالوحشَة بعد سَفري إن كنتِ تتردَّدين عليه..

أعلمُ أنَّ طلبي غريب.. ولكنَّنا في زمنِ اللا مَعقول..

بإمكاني أن أحدِّثكِ الآن عن أشياء أشدّ غرابة حدثتْ وما زالت تحدث في الخفاء.. قد تذهلك لولا أنَّ بعضَها طواهُ الكِتمان"...

"أمُّ يوسف.. أمُّ يوسف.. أمُّ يوسف.. تعلمينَ كم أحبُّ حامد.. وأدركُ أنَّكِ بينَ نارَين.. لكن لا طاقة ليَ بما تطلبين..

هو أمرٌ بالغُ الصعوبةِ أن نجدَ من يحمل طائلة مسؤولية طفلٍ مكتومٍ ولبعضِ الوقت!

قد اعثرُ على عائلةٍ لم يرزقها الله نعمةَ الإنجاب تتكفَّله للأبد بطريقةٍ ما.. ولكن من ذا الذي يرعى وفي مِثل هذه الظروف طفلاً غريباً مجهولَ الهويَّة ويتكفَّلُ بحضانتِه المُؤقتة.. ويوقِّع لكِ صكَّ استرداد؟

نعم قد يكون هناك من يفعلُ ذلك لوجهِ الله.. لكنَّه ليسَ في متناولِ أيدينا الآن"..

"وهو أمرٌ بالغُ الصُعوبةِ أيضاً أن أتخلى عن فرصةٍ ذهبيَّةٍ لعلاج رَغَد.. أو أن أتخلى عن مُرافقتِها وهيَ الطفلةُ المُعاقة..

قلتُ لكِ عزيزتي.. أنا مُجبرةٌ بل من واجبي كأم أن أطرقَ كلَّ الأبواب.. وبقاؤها مُوصدة أو فتحها هو أمرٌ بيدِ اللهِ وحدَه.. والخِيرةُ فيما اختارَهُ الله.. أشكركِ من كلِّ قلبي على سعةِ صدرك وآملُ أن تفكري معيَ في حلٍّ لمشكلتي"..

كان هذا آخر ما قالته بديعة قبل أن تنهضَ بتثاقلٍ وتودِّعَ يارا بعينين سَقيمتين باهتَتَين لا يغادرهما الاستجداءُ والأملُ..

وها هو حامد يركضُ مُقبلاً من الغرفةِ المُجاورة وبيدِه لوحته الفنيَّة التي رسمها اليوم برفقةِ بَسمَة..

رسمَ فيها طفلاً صغيراً تغمره السعادةُ وهو يُمسكُ بيدَيِّ امرأتين عن يمينه وشمالِه..

"انظري يا يارا.. حامد رسمَ نفسَه مع والدَتيه.. ماما بديعة وماما يارا"... قالت بَسمَة ضاحكةً..

أمَّا يارا.. فرفعَتْ حاجبَيها بدهشةٍ يساورُها القلقُ والاستسلام..

"ماما يارا؟ جمييييل.. ما كانَ ينقصني سِوى هذه الإشارة الآن"....

غداءُ عَسَل

كان يوماً ماراثونياً بامتياز.. أنهى الجميع جدول دوامهم المُكتظَّ بالمهام.. واتفقت يارا مع بَسمَة على تناولِ الغداءِ معاً في أحد مطاعم حيِّ العزيزية..

هو مطعمٌ صغيرٌ ومُريح يُقدم الوجبات السريعة بنفس أناقةِ الوجبات البطيئة.. وبَسمَة هيَ صديقةُ طفولةٍ ليارا مذ كانَتَا تقطُنانِ معاً حَيَّ السريانِ القديمة في حلب..

حيٌّ جميلٌ هادئٌ تحتَضِنُ فيه المَباني الحديثةُ البيوتَ العربيَّةَ القديمةَ..

غالبيَّة سكَّانِه من المَسيحيين والأكراد..

تشعرُ وأنتَ تتجوَّلُ في شوارِعِه وأزقَّتِهِ الضيِّقة أنَّكَ في بيتٍ كبيرٍ مُتعدِّدِ الغُرَفِ والدِيكُورات.. وكأنَّ قاطِني الحَيِّ مِن أسرَةٍ واحِدَةٍ بأمزِجَةٍ مُختَلِفةٍ..

النوافذُ مَفتوحَةٌ والسَتائِرُ مُشرَعَةٌ.. ولا أحدَ يَستَرِقُ النَظَرَ إلى أحد!

وأمامَ أبوابِ البيوتِ العَربيَّة القديمة المَفتوحَةِ دائِماً تجتمِعُ النسوةُ على مشروعِ فنجانِ قهوةِ المَساء فيَجلِسنَ على الكراسي المعدنيَّة المنخفضة ذات القوائم الأربع.. بمقعدها المَصنوع من شرائِطَ مطاطيَّة مشدودة بإحكامٍ حولَ قاعدةٍ مِن إطارٍ حَديديٍّ مُربَّعٍ لتتحمَّلَ جلساتِ الجيران اليوميَّة الطويلة كلَّ مساءٍ..

يارا وبَسمَة جمعتهُما جِيرةٌ وصداقةٌ في ذات المَدرسة والحيِّ.. وحتى بعد انتقالِ عائلة يارا للإقامة في دمشق بقيت الصديقتان على تواصُلِهما الدائم.. إلى أن أخطَرتْ بَسمَة صديقتها أنَّ هناك شاغرٌ يناسب مؤهلاتها في المنظمة التي تعمل معها في حلب..

وكانت العودة الميمونة إلى الشهباء..

جلسَتْ يارا في المطعم مُنهَكةً.. بل رمَتْ بنفسها كجثةٍ هامدة على الكرسيِّ الجلديِّ وأرخَتْ أطرافها المُتشنِّجة بعد هذا اليوم المُتعِبِ المُزدحمِ بالأحداث..

"حسناً.. ماذا تحبين أن تأكلي اليوم ماما يارا؟".. قالت بَسمَة مُمازحةً بخباثة..

"لا تبدأي بَسمَة.. إلا إذا كنتِ تريدين أن تكوني أنت وجبة الكباب القادمة"...

"يا إلهي كم تصبحين عدوانيَّة وشرسة حين يتمكَّن منكِ الجوعُ والتعبُ يارا!!"..

"والهمُّ أيضاً يا عزيزتي.. الهمُّ أيضاً..

أدخلتني اليوم أمُّ يوسف في دوامةٍ من الهمِّ والحزنِ لن أتمكن من الخروج منها بسهولة.. عجباً من قلبيَ هذا الذي يهزِمُ كلَّ الرجال.. فيهزمُه طفلٌ ضعيفٌ ليخرَّ صَريعاً بين كفَّيهِ الصغيرَين"..

"على سيرةِ الرجال.. سينضمُّ إلينا سعدٌ بعدَ قليل.. لا تكوني قاسيةً معه هذه المرة.. لو رأيتِ تَشنُّجَهُ وتوتُّرَهُ اليوم خوفاً على سلامتِكِ.. لتَقَدَّمْتِ أنت لخطبته فوراً".. همست بَسمَة بابتسامة خبيثة من جديد في تلميحٍ إلى إعجابِ سعد الواضح بيارا..

"ألن تكُفِّي عن هذه الحَرَكات يا فتاة؟ من أذِنَ لكِ بدعوتِهِ؟

ما بالُكِ بَسمَة؟ ألا أستطيعُ أن أحظى اليوم ببعضِ الوقت والخصوصيَّة للاسترخاء؟"..

"طلبَ مني الانضمام وقالَ أنَّه لن يزعجَنا.. سيأتي في وقتٍ متأخرٍ كي لا يُصادِر انفرادَنا في جلستنا.. ولننعُم ببعضِ الخصوصيَّةِ المُسبَقة..

يريدُ أن يُصالحك أيَّتُها الظالمة العنيدة.. علماً أنَّكِ أنتِ من أسأتِ إليه.. كلُّ ذنبه أنَّه يُحبُّك ويخافُ عليكِ.. بل ومنكِ؟

مرَّت ساعاتُ الصباحِ اليوم عليه كالصاعقة..

امنحيه القليلَ فقط من عطفِك الذي تُغدقينَ به حمودة أفندي"...

التفتَتْ يارا إلى النافذة سارحةً وكأنَّها حوصِرت وباتتْ عاجزة عن الدفاع عن جبَروتِها وإنكار الخللِ العاطفيِّ الذي يَعتريها..

لا بدَّ من الاعتراف.. هي حقاً غير مُتَّزنة..

ربما عليها إعادة النظر في أمر توزيعِ الحِصص العاطفيَّة بعدالةٍ على مَنْ هُم في حياتها كعدالتها في توزيع حصص المَعونة على المُحتاجين في عملها..

وسعدٌ هذا.. لم يتأخر كثيراً.. حضرَ في منتصف وجبةِ الغداء..

في الحقيقة... يُمكننا اعتباره تأخَّرَ قليلاً.. إذا احتسبنا الوقت الذي حاول إضاعته وهو يتجوَّل حولَ المَطعم.. كان قد غادر المكتبَ معهما وتَرَكَهُما مُدَّعياً انشغاله بأمرٍ طارئٍ.. لكنَّهُ لم يتمكَّن من لجمِ رغبتِهِ في أن يحومَ في فلكِهِما.. فاتَّجهَ إلى نفس المكان بشكلٍ لا إرادي.. وأضاع بعض الوقت مُتسكعاً في الجوار يُراجع نَصَّ النِقاشِ المُتوقَعِ بعد قليلٍ مع يارا..

ماذا سيقولُ؟ وكيف سيُصلحُ الأمور التي لم يفسدها هو أصلاً؟

ماذا لو قالت كذا؟ أقولُ كذا.. وضعَ خوارزميَّةِ حوارٍ كاملة مُتعدِّدةِ الاحتمالات ومُتعدِّدة الإجابات في رأسِه..

للحبِّ غير المَضمونِ رهبة.. وهو يحبُّ يارا.. بل ويعيشُ في فلكها..

رغم طلعتِهِ البهيَّة وهيبَتِه وشخصيتِه المُحبَّبة من قبل الجنس اللطيف.. وتهافُتِ المُعجباتِ عليه.. لا يرى سواها.. و(القلب ومن يُريد).. هكذا هو الحب.. رزقٌ نُصابُ به.. وقد يكون مُباركاً أو لا يكون..

"مساءُ الخير أيَّتها المُنشغِلات.. هل أستطيع الانضمام إلى هذه الجلسة اللطيفة؟ أم أن أحدهم سيمارسُ حقَّه في الفيتو؟

أنا لا أحمل معيَ أيَّ ممنوعات.. لا أسلحة.. لا حزام ناسف.. لا سجائر.. لا شيء من هذا القبيل.. بإمكانكم تفتيشي إن لم تصدقوا ذلك"..

يا لها من مُفارقةٍ مُضحكة.. تراهُ ظاهرياً يقول هذا بكلِّ ثقةٍ ولا مبالاة وبابتسامةٍ هادئة لا تعكس أبداً ضجيج ضرباتِ قلبهِ التي تكاد تُسمَعُ على الملأ فتفضح اختلاجاته لولا أن طغى عليها صوت الموسيقى في المطعم..

للحبِّ طبولٌ تُقرَعُ أيضاً كما للحرب!!

"أهلاً بصديقنا المُدخِّن"... أجابت يارا بنبرةٍ مُسالِمة هذه المَرَّة استمدَّ منها سعد جرعة اطمئنانٍ مُشَجِّعة للمضي قُدماً ومتابعةِ مرافعَتِهِ..

"أنا؟ من قال هذا؟ ما رأيتِهِ في يدي اليوم كان سيجارة أحد المارَّة.. أودعني إيَّاها لأنَّه رأى فجأةً حبيبَتَه التي لا تحبُّ المُدخنين ولا تتحمَّلُ حتى رائحة التبغ الجاف..

حبيبته هذه صعبةُ المراس.. لكن ما بيده حيلة.. قدره جعله هدفاً لسهامِها دوناً عن الجميع.. ولا طاقة له بخصامِها..

وأنا تعاونت معه وكنتُ محضرَ خيرٍ ليس إلا.. وإلا فلماذا أعمل في مؤسسة خيرية؟ هذا كلُّ ما في الأمر.. هل أستطيع الجلوس الآن حضرةَ المُحقِّق؟"..

"يا لمكركم وحججكم التي لا تنتهي معشرَ الرجال! تفضَّل بالجلوس سعد باشا".. لم تقوَ يارا على لجمِ ابتسامتِها التي فلتت منها عنوةً مشيرةً لسعد بالجلوس..

سارت الأمور على ما يُرام وتجاذب الثلاثةُ أطرافَ الحديث الذي كان في جُلِّهِ عن حدثِ اليوم وبطلته بديعة.. احتسوا قهوتهم وهم يتدارسون

بعض الاحتمالات التي قد تُمَكِّنهم من مساعدتها إلى أن أفزعَ الجميع دويُّ سقوط قذيفةٍ في الجوار!

هي ليس قذيفةً نموذجية.. إنَّما جرَّة غازٍ صغيرة تُطلَق من مدفعٍ محليِّ الصُنع.. صغيرةٌ لكن فعلها لا يُستهانُ به..

حين يتعلق الأمر بالانتقام تُستَفزُّ القدراتُ ويَتَفَنَّنُ الجميع في ابتكار آليَّاتِ القتل! وليس أسوأ من حربٍ اعتباطيةٍ عشوائيةٍ غوغائيةٍ استثنائيةٍ كهذه..

توالتْ أصواتُ القذائف في مُحيط المكان وسرعانَ ما تبِعَتها أصواتُ سياراتِ الإسعاف والإطفاءِ أيضاً.. يبدو أنَّ هناك ضحايا جُدد.. أرقامُ المساء تلي أرقامَ الصباح.. ومؤشرُ عدَّاد القتلى والجرحى في صعودٍ بلا هَوادة!

انحشرَ روَّادُ المطعم ومُوظَّفُوه مَعاً في ركنٍ داخليٍّ خلفيٍّ من المكان مَخافة تطايُر الشظايا..

جلستْ يارا على الأرض بمُحاذاة بَسمَة وباقي السيدات وانكفأنَ واضِعاتٍ أيديَهنَّ على رؤوسِهِنَّ كما الأطفال.. يتملَّكُهنَّ الجزعُ مع كلِّ دويٍّ جديد.. بينما احتشدَ الرجال في الشطر الثاني من الركن يتوسطهم سعد لا تكادُ تطرفُ له عينٌ عن يارا..

لعلَّهُ الخوفُ من أن تكون هذه اللحظات هي اللحظات الأخيرة للجميع أو لبعضهم.. اللحظاتُ الأخيرةُ التي قد لا يراها بعدها..

ليتَه على الأقل أخبرَهَا كم كان يحبُّها..

نعم.. هي تعلم ولا شكَّ أنَّه يحبُّها ولكن لا تعلم كم!

لا تعلم كم تعنيه كلُّ تفصيلةٍ تخُصُّها.. نغمةُ جوَّالها.. حقيبة يدها التي تحظى مُطوَّلاً بالاستناد إلى كتِفِها ويشمتُ بها كلما رآها ملقاةً على الكرسيِّ..

صوتُها حين تنادي (سعد) بكلِّ نبراته.. غاضبة.. مُتعبة.. فَرِحة.. مُتململِة.. بل وحتى مُستهزِئة..

رقمها حين يظهر على شاشة جوَّاله مُتوَّجاً باسمها الأوَّل (يارا) وكفى.. ترافقه النغمة المُخصَّصة لها والتي باتَتْ نشيدَه الوطنيَّ!

وطبعاً هو الحارس الشخصي المُلازم لآخر ظهورٍ لها على الواتس.. تتسارع دقات قلبهِ لمجرد رؤيتِها (متصل الآن)..

فهو على الأقل يعرف أنَّها وفي هذه اللحظة تُمسِك الجوَّالَ بيدها..

مع أنَّهُ لا يدري ما نفع معلومةٍ كهذه.. ولا يدري أيضاً لِمَ يشغله الأمر ويعنيه إلى هذا الحدّ!

وبالتأكيد لا يفوته أن يشارك وبفارغ الصبر وفي كلِّ مرَّةٍ (بديعة وابنها) انتظارَهما لها في المكتب.. فقط ليكون شاهداً على لحظة ترحيبها الاحتفالية بحامد فاتحةً ذراعيها له.. لتهتف من قلبها وحنجرتها معاً (حبيبي حمودة)..

تُطرِبُ مسامعَهُ كلمة (حبيبي) التي تُطلقها بعفويةٍ مع هذا الصبي المَحظوظ.. ويختلسُ صورةً نادرةً للمشهد برمَّته..

صورةٌ تفضحُ بلا تحفُّظٍ تلك الأمومة المَكبوتة التي تستقرُّ في رحم كلِّ أنثى.. حتى بدون جنين..

محظوظٌ هذا الحامد الصغير.. هو قادرٌ وببساطة على انتزاع ابتسامةٍ من يارا وإن كانَت تنفثُ دخان نزَقِها المُعتاد..

ابتسامةٌ تخرجُ من عينيها قبل شفتَيها.. تمنَحُكَ رصيداً من العاطفة والحنان بإمكانِه أن يُشبِعَ مئةَ عامٍ عجافٍ من الجفاف العاطفي.. حتى ليشتهيَ المرءُ أن يعودَ طفلاً أمامها من جديد.. لعلَّه يتلقَّفُ ذات السخاء العاطفي..

جلُّ ما يَتمنَّاهُ الآن أن يندَسَّ بين النسوةِ بمُحاذاةِ يارا فيتجاوزهن كالألغام ليهمسَ في أذنها اعترافاتِه المُكتَنِزة كوَزمةٍ في صدره منذ عام..

لكنَّه وفي هذه اللحظات الطويلة يُدركُ استحالةَ الأمر ويشعرُ أنَّها بعيدةٌ للغاية.. وكأنَّما البضعة أمتارٍ ونسوة التي تفصله عنها كأنَّما هي مسافاتٌ شاسعةٌ يستحيلُ اجتيازُها الآن وفي مثل هذا الوقت الحرج بالذات..

أحسَّ للتوّ بقيمة كلِّ دقيقةٍ أهدرَها فيما مَضى وهو يُؤجِّلُ اقتحامَ قلبِها.. بحجَّة عدم جهوزية التكتيكات الاستراتيجية لهذا الاقتحام..

"لكن ماذا لو كُتِبَتْ لنا النجاة؟ ماذا لو كان مُقدَّراً أن نحيا بعد؟

قد يلتهمُني الخجل لاحقاً.... لا لا.. لا بُدَّ وأنَّنا سننجو وقد أُخبِرُها لاحقاً وأعترفُ لها رسمياً بكلِّ حماقاتي نحوها.. وليكن ذلك بشكلٍ مُنمَّقٍ يليق بالحكاية.. بعد استكمال جهوزية التكتيكات"..

كانت أطولَ نصف ساعةٍ تمرُّ في سجلهم الزماني قبل أن يتوقفَ سيلُ القذائف وتخبو أصواتها في الخارج لتُستَبدلَ بهَرَجِ ومَرَجِ المارَّة وحركة الشارع المُعتادة.. وما إن تأكدَّ الجميعُ في المكان من انقشاع غمامة الخطر حتى تنفسوا الصُعداء وتدفقوا مُغادرين زُرافاتٍ وهم يلملمون بقايا اضطرابِهم وجَزَعِهِم.. بعد حفلتهم الصاخبة..

بينَ القلبِ والعَقل

ها هوَ اليومُ التالي يعلنُ إسدالَ السِتارِ على ما حملهُ الأمسُ من توترٍ وذعرٍ.. رغم أنَّ تلك المشاعر باتَت مُعتادةً وسائدةً في يوميات كل سوريٍّ.. غير أن أقساها ما يحملُ في طيَّاتِهِ مشاهدَ الدماءِ والأشلاءِ.. كالتي حمَلَها الأمسُ..

كانت يارا قد عادتْ إلى المنزلِ مَساءً.. لتجدَ أهلَ حَيِّها وقد رقَدوا مُنكفِئين على جِراحهم.. بعد أن أقفلوا باكراً مجالس عزائِهم الخجولة..

في مثل هكذا حرب.. لا يُسمَحُ لك حتى بممارسة طقوسِ حُزنك كما يجب..

من شأنِ الاحتياطاتِ الأمنيَّةِ أن تحجبَ أنفاسَك إن اقتضى الأمر..

لا مجالَ للتجمُّعاتِ الكبيرةِ في مجلس عزاءٍ تُنصَبُ له خيمةٌ في الشارع مَخافَةَ أن تُحوِّلَهُ إحدى القذائف الجديدة النَهِمَة وبشكلٍ انشطاريٍّ إلى مجالسَ مُتجدِّدَة..

حتى موكب الجنازة ومراسمُ الدفنِ باتت تقتصرُ على بضعةِ أشخاصٍ يرافقون المُتوفى إلى مأواه الأخير.. ليَسمَعَ قرعَ نعالِهم سريعاً وهي تغادر في عُجالة.. فالمقبرةُ مكانٌ مكشوفٌ وهدفٌ يُغري من يقبعونَ خلفَ متاريسِهم في الشطرِ المُقابِلِ مُترصِّدين فرصةً للقنصِ أو لإطلاقِ قذائِفِهم..

غريبةٌ هي شهوةُ سفكِ الدماءِ التي أصابَتْنا في هذه الحرب..

القتل.. وفقط من أجلِ القتل.. وكأنَّنا في إحدى أقذرِ نُسخِ ألعابِ العنفِ الإلكترونية.. فأرواحُ البشر باتَتْ بخسةً إلى الحدِّ الذي تُهدَرُ فيه بِلا سببٍ وبكبسةِ زرٍّ.. ليُستعاض عنها برصيدِ ربحٍ إلكترونيٍّ هَزيل..

علمَتْ يارا صباحاً أنَّ أمَّ كريم (إحدى جاراتِها في الحيِّ) قد فُجِعَتْ بطفلِها في مَجزرةِ الأمس بعد إصابَتِهِ بشظيَّةٍ في الرأس.. فعرَّجَتْ لمواساتِها وتقديمِ واجبِ العزاءِ باكراً قبل الالتحاق بعملها..

لم تَفُتْها رؤيةُ جثمانِ الصغيرِ الراقدِ منذ الفجر في صدرِ غرفة الضيوف مُحاطاً بألواحِ الجليد في انتظار استكمالِ إجراءاتِ الدفنِ بعد أن التقطَ آخرَ أنفاسه ليلاً في مشفى حلب الجامعي..

يصعُبُ على المرءِ أن يراقبَ بتماسُكٍ واتزانٍ تلك الأمَّ الثكلى وهي تحتضنُ صغيرَها للمرَّةِ الأخيرة..

رفعتْ رأسَها عن صدرِه البارد بعد نوبةٍ من البكاءِ والقهر..

تحسَّسَتْ وجهَهُ بأنامل مُرتجفة.. لعلَّها تحفرُ تلك الملامح في ذاكرة كل الحواسِ قبل وداعها..

لم يكن طفلَها فحسب بل كان الطفولةَ كلّها!

فرشاةُ أسنانِه الصغيرة التي ما زالت رطبةً تعبقُ برائحة النعنعِ الحيَّة.. قلمُ الرصاص المَبريّ بعنايةٍ ليكتُبَ مستقبلاً ما عادَ ليُكتَب.. نعلان صغيران على عتبةِ الباب لن يكبُرا أبداً.. دماؤه التي لم تجف وترفض أن تغسلها من على عتبةِ بابِ الدار..

كلُّ شيءٍ سيبقى مَعَها "على صِغَرِهِ".. إلاّ هو!

كم هوَ مؤلمٌ أن تنتشلَ منكَ الحياةُ حياةً دونَ سابقِ إنذارٍ أو اختيار!
كم هوَ مُؤلمٌ أن تنذرَ نفْسَكَ لموتِ أحدِهم قبلَ عِيشَتِه!

كان كأقرانِه يسترقُ لحظاتِ لهوٍ أمامَ منزلِه حين سرقَه صاروخ الصباح وانتزعه من حِجْرِها..

هو لم يتجاوز الخامسة.. ولن يتجاوزها!

متى ستكف تلك النيران النَهِمَة عن التهامنا؟؟ متى سيكون للطفولة قبَّةٌ حديدية تردُّ الأسلحة الغبيَّة!

نحن شعبٌ يغلفنا الإيمان بالله والرضا بقضائِه.. ولكنَّ للموتِ هَيبة.. وكأنَّما للحزن قصةٌ معنا غريبة!

تاركةً خلفها أصوات نحيبٍ مبحوحةٍ ومُنهَكة.. غادرت يارا دار أمِّ كريم.. بعد أن قلَّبَتها الأفكار بين كفَّي التَخبُّط من جديد..

كم باتت الأمومة مؤلمةً وباهظةَ الثمنِ هذه الأيام!

على الأنثى فينا أن تتوقَّع فاتورةَ سعادةٍ وضريبةَ إشباعِ غريزة أمومتها.. وهي تحتضن هذا الكائن الصغير.. هل يستحقُّ الأمرُ كلَّ هذا العَناء!

أكادُ أشعرُ بنشوةِ النَجاةِ والانتصارِ لمُجرَّدِ كَوني عازبة..

لن أتمادى في أفكاري.. غير أنِّي لا أقوى على مشاهدة طفلي مُسجىً تُغطيه دماؤه على هذا النحو.. لن احتملَ انسلاخَه عني بعد التحامي بكينونته التحاماً كاملاً.. يا له من ابتلاء.. أيُّ وجعٍ هذا الذي ليس كمِثلِهِ وَجَع!! والعياذُ بالله..

على أُمِّي.. "الحاجَّة أمّ ياسر" أن تشاهدَ ما أرى لتكفَّ عن تصديع رأسي بالنشرة اليوميَّة.. الزواج استقرار يا بنتي.. البنت ما لها غير زوجها وأولادها.. غداً عندما تحضنين طفلك ستتذوقين طعم فرحة لا تُضاهيها فرحةٌ أخرى..

وماذا عن طعم العلقم الذي قد أتذوقه إن انتزع أحدهم طفليَ هذا من حضني!

لا أريد أن أمتلك شيئاً لا أقوى على فقدانِه.. لا أريد تذوُّقَ تلك السعادة إن كُنت سأتقيَّؤها..

وهل ستتشبَّثُ أمِّي بأقوالِها ونصائِحها تلك إن علمَتْ بفقدانها لياسِر؟

إنَّ مرارةَ هكذا خبر كفيلةٌ بمحوِ حلاوةِ سعادةِ سنواتٍ بعمرِكَ يا ياسر..

قطعَت أفكارَها قسراً عند ياسر.. كمن انتزع بعنف كبلاً من مقبسِ الكهرباء.. وكالمُعتاد.. أدارت مُحرِّكَ سيارتها باتجاه العمل..

لم تفتح الراديو هذه المرة.. لا مزاجَ لها اليوم أن تسمعَ أحداً.. أيّاً كان..

أرادت التجوّلَ في المدينة قليلاً قبل الوصول إلى مكتبها مُستمتعةً بصوت الصَّمتِ الذي يبدو أنَّهُ أصبَح نعمةً..

وكما يقول المَثل الإنكليزي (No news .. Good news)..

لا رغبةَ لها بسماعِ شيءٍ أكانَ خبراً أم أغنيةً أم تُرَّهات وصَباحات مذيعٍ مائعٍ..

لا شيءَ إلا الصمت الذي يتيحُ لها نسجَ الحواراتِ التي تحلو لفَضاءِ مُخيِّلتِها السمعيَّة.. وفقط..

وَصَلَتْ إلى المكتب.. صعدتْ السلالم بتثاقلٍ وهي شاردة تجرُّ رجليها جراً كمن يُساقُ إلى المِقصلة.. إلى أن وقع نظرُها على طفلٍ صغيرٍ يجلسُ في زاوية غرفة الانتظار فقاطَع شرودَها.. لتُردِّدَ في سرِّها "حمودة" ما الذي أتى به اليوم مُجدَّداً؟؟ خير إن شاء الله؟

انقبضَ قلبُها فجأةً.. شعرتْ أنَّ أمراً ثقيلاً يلوحُ في الأفق ثانيةً.. وجمدتْ في مكانها تُحملِقُ في الصغير الذي ما إن رآها حتى انتفضَ وهروَلَ صَوبَها فاتحاً ذراعيه.. ليُرغِمَها على الخروج من حالة التصلُّبِ والتوجُّسِ التي اعترَتْها.. فيمنحها مُرونةَ الاحتضان..

"أتَتْ به تلك السيِّدة وتنتظرك لأمرٍ خاص على حدِّ قولها".. قالت بَسمَة وهي تستقبلُ يارا مُشيرةً بحاجبَيها إلى سيِّدة مُخمَّرة تراقب الفتاتَين من مكانِ جلوسِها في أقصى الغرفة في انتظار أن يُؤذَن لها بالاقتراب..

"تفضلي سيِّدتي.. خير إن شاء الله؟ وأينَ بديعة؟"..

"أينَ أمّ حامد؟".. استدركَتْ يارا وهي تُشيرُ إلى الصغير..

اقتربتْ السيِّدة بِتردُّدٍ واستبَقَتْ كلامها بورقةٍ صغيرةٍ دسَّتها في يدِ يارا..

"أنا مُجردُ رسولٍ وفاعلةُ خيرٍ يا آنسة.. باختصار أمُّ حامد أرسلتْ معيَ ابنها أمانةً لكِ بعد أن اضطرَّت صباحاً لمُغادرة حلب برفقةِ ابنتها رَغَد..

أنا أعبُرُ بشكلٍ شبه يوميٍّ لأتبضَّع بينَ شَطرَي حلبَ الشرقيَّة والغربيَّة حاملةً روحي على كفّي لأقتاتَ لقمةَ عيشي.. وبديعة تثقُ بقدرتي على اصطحاب صغيرِها فائتمنتني لأوصله لكِ مع رسالةٍ منها..

لم يبقَ له أحدٌ في الشطر الشرقيِّ.. والمكانُ غيرُ آمنٍ للصغير بمفردِه هناك.. وقد أخبرتني أنَّكِ في انتظاره وأنَّه مُعتادٌ عليكِ ولن يرفض البقاء في عُهدتك"..

للحظات... لم تنبَس يارا ببنتِ شَفة.. كانت للوهلة الأولى تحت وقع الصدمة.. مذهولةً تماماً بسياسةِ الأمر الواقع (غير المُتوقَّعة) التي انتهجتها بديعة.. والتي جاءت كالضربة القاضية وكالهدف الذهبي في الدقيقة الأخيرة من الشوطِ الإضافيِّ الثاني..

آخر ما كانَ بالحسبان أن تلقيَ بصغيرها في حضنِ الغير.. وتغمضَ عينيها وترحل.. وبهذه السرعة!!

كان الأجدى أن تسمى فظيعة.. سريعة.. أيَّ شيءٍ.. إلا بديعة..

"مهلاً مهلاً.. وهل باعتقادك أو باعتقادكما أنَّنا سنسمحُ بتركِ الصغيرِ هُنا؟؟ هل وبكلِّ بساطةٍ تتصورين أنَّه طَردٌ بريديّ تمَ تكليفكِ بإيصاله ثم تنسحبينَ وحَسب؟ لا بدَّ وأنَّها مُزحة.. ومُزحةٌ ثقيلةٌ أيضاً"..

"وماذا عسايَ أفعلُ بعد؟ أخبرتْني بديعة أنَّكِ على علمٍ بالترتيبات وأنَّه لا مُشكلة إطلاقاً"..

"ترتيبات؟ بل هي تعقيدات.. اسمعيني جيداً.. الآن وقبل فواتِ الأوان اتصلي بها ولتتدبَّر الأمر (بترتيباتٍ) أخرى بديلة"..

"هذا مستحيل.. هي الآن في طريقِها إلى غازي عينتاب التركية وكما تعلمين لا تغطية لشبكاتِ الجوَّال في مناطق الشطر الشرقيِّ من حلب وما بعد.. لقد انطلقَتْ مع بعضِ جيرانها صباحاً.. ولا بدَّ أنَّها الآن على مشارفِ الحدود"..

"هكذا إذاً؟ أحرَقَتْ السُفن؟".. قالت يارا وهي تتنهَّدُ وتنظرُ إلى حامد الذي يبدو أنَّه ومع فرحتِه برؤيتها بدأ يتوجَّسُ ويرتابُ ويشعرُ بالارتباكِ وعدمِ الارتياح..

"صدِّقيني يا آنسة يارا.. بديعة لا حولَ لها ولا قوَّة.. هي مُجبرةٌ على ذلك.. ولا بدَّ أنَّ لها أسبابها القاهرة وقد تشرحها لك في الرسالة..

صدقيني لم يُكَفْكِفْ دموع هذا الصبيِّ على فُراقِها إلا إخباره أنِّي سآتي به إليكِ"..

تبادَلت بَسمَة ويارا نظراتِ العجزِ والغضبِ والحيرةِ والإشفاقِ معاً.. لكن لم يكن أمامهما خيارٌ آخر..

"بَسمَة اصطحبي السيِّدة إلى مكتبك وسجلّي بياناتها واحتفظي بصورة عن بطاقتها الشخصية.. ولتُوقِّع على إقرار بأنَّها اصطحبَتْ حامد إلى هنا وسلمَتْنا إيّاهُ على مسؤوليتِها بطلبٍ من والدتِه"...

نظرَتْ بَسمَة إلى يارا باستغرابٍ ثم باستنكارٍ وتوسَّعَتْ حَدَقتا عَينَيها بدهشة.. هي المرَّةُ الأولى التي يَطرأ فيها أمرٌ كهذا ولا إجراءَ رسميّ مع هكذا وضع إلا التوجُّه إلى الجهات المُختصَّة من شرطة ودار أيتام..

إقرارُ ماذا هذا الذي ابتدَعَتْه رئيستُها وطلبتْهُ للتوّ!

"هيا يا بَسمَة.. أمامنا الكثيرُ من المَهامِ اليوم.. دعينا لا نعطِّل السيِّدة أكثر.. أتمِّي الإجراءات التي طلبتُها منكِ رجاءً ريثما أطَّلِعُ أنا على الرسالة التي بين يديَّ.. وليذهبْ حامد برفقةِ إحدى البنات ليرسم لنا اليوم لوحةً جميلةً كالعادة".. قالتْ يارا مُحاولةً إخفاءَ امتعاضِها وهي

تنظرُ إلى حامد بعد أن رسمتْ ابتسامةً قسريةً بالكاد استطاعت أن تنحتَها على وجهِها المُتحَجِّرِ الجامدِ منذُ الصباح.. وجلست على كرسيٍّ جانبيٍّ أمام طاولة مَكتبها لتقرأ الرسالةَ!

"السلامُ عليكم آنسة يارا.. لا بدَّ وأنَّكِ تقرأين كلماتيَ الآن بغيظٍ وغضَبِ شَديدَين.. وربَّما شَتَمْتِ واحتقرتِ تلك الأمّ التي رمَتْ طفلها وهرَبَتْ..

قَصدتُكِ بالأمس في محاولةٍ بائسةٍ لتشريعِ تصرُّفي هذا الذي كنتُ وبكلِّ الأحوال عازمةً على إتمامِه.. لكن بعد رفضِكِ القطعيِّ لم يكن أمامي خيارٌ آخر.. كان لا بُدَّ أن اختارَ بين رَمي رغد للمجهول والتخلي عنها بتركها لمصيرِ الموتِ البطيء.. وبين رمي حامد في حضنك قسراً لفترةٍ أسألُ اللهَ ألا تَطول..

هي أنانيّةٌ أو قلّة ذوقٍ أو قلَّة إنسانية سَمِّها ما شِئْتِ.. لكنِّي أدعو لك دائماً ألا تَختبري مرارةَ هكذا حيرة.. لم يبقَ لي أحدٌ هنا.. تقطَّعت أوصال أهلي.. ولا آمنُ على حامد مع أحدٍ من جيراني في حلب الشرقيَّة تحت وطأةِ القصف المُتواصلِ هناك.. هو حتماً سيذبل في حضنٍ غير حضنك.. تعلمين أنَّه يحبُّك ولكن لا تدركين تماماً عظمة مكانتك في قلبه.. أنتِ الأمُّ البديلةُ في عينِه وبكلِّ سُرور.. لن يشعر بالحزن كثيراً على فراقي ورّغَد طالما أنَّك البديل.. كلُّ أمٍّ تتمنَّى الأفضلَ لأولادِها.. ربَّما مع الأيام حين تصبحينَ أمَّاً جميلةً.. ستعذُريني وتمنحيني السَماحَ والعَفوَ..

بقلبٍ يَعتصِرُهُ الألمُ وتُمزِّقُهُ قِلّةُ الحِيلة أستودِعُك الله الذي لا تضيعُ ودائِعه.. وأدعو لرَغَد بالشفاء.. وعسى ألا يطولَ الفراق"..

اتَّكأَتْ يارا على الطاولة باستسلام وأطرَقَتْ رأسَها إلى الأرض وكأنَّها باتَتْ عاجزةً عن تجريمِ بديعة.. هي حقاً مُحقَّة.. بل وتعرف مصلحةَ ابنها جيداً.. لا يعيبُ أمومتَها أنَّ تصرُّفَها هذا لا يصبُّ في مصلحة أو

رضا أو راحة الست يارا.. وهذا فعلياً ما أجَّجَ غضَبها.. تشعرُ وكأنَّ إنسانيتَها قد حُوصِرَتْ الآن وباتَتْ على المَحَكّ..

أما أمومة بديعة فلا غُبارَ عليها.. مِثلما عندها حامد عندها رَغَد.. والعيبُ ليس فيها.. العيبُ في ظروف هذا البلد..

يبدو أن علينا التسليمَ بالأمرِ الواقع.. نظَرَتْ إلى حامد نظرةَ رفقٍ وهو مُنكبٌّ على ألوانِه ورسوماتِه في الغرفة المُجاورة..

أولاً وأخيراً ما ذنبُ الصغير الذي جاءَ إلى هذه الدنيا بل وزُجَّ في هذه الحرب دون أن يُستَشار.. ثم ما الضيرُ في رعايته والاهتمامِ به لبضعةِ أيام أو حتى أسابيع.. فلنعتبرها دورةً تدريبيةً قسريَّةً على الأمومة.. لكن تبقى المُشكلة في هويّة الصبيِّ.. ولنسأل الله ألاّ نُطالَبَ بالتعريفِ عنه لأيِّ جِهةٍ رسميّة..

أمومة جَبريَّة

أمضى الصغيرُ يومَهُ الأولَّ رسميَّاً مع فريقِ العملِ في مَكتبِ الإغاثة.. أنهى رسوماتِه المُعتادة وشرَعَ يتجوَّلُ من غرفةٍ إلى أخرى وبكلِّ ثقةٍ يراقبُ المُراجعين.. سيّما مَن بِصُحبَتِهم أطفال..

يُلازمُ في تحرُّكاتِه بطلَتَهُ "يارا" تلك الصبيَّة الفاتنة التي يَعتقدُ الآن أنَّها تقودُ العالمَ.. بعد أن استشعَرَ بفطرَتِهِ أنَّها الآمرُ الناهي في هذا المَكان.. ولا أجملَ مِنْ أن تكونَ طفلَ السُلطانةِ المُدلَّلِ الذي ينعمُ بحصانَتِها الدبلوماسيَّة..

سعد بدورِهِ كان شخصاً مُقرَّباً من حامد.. قاسِمُهما المُشتركُ الأكبرُ هو الذُكورة.. يُحاصِرُها كمُّ الأنوثةِ المُفرط هذا الذي لم يَعُد يُطاق.. لا لثقله عليهما بل لأنَّه يفيضُ جمالاً ولطافةً.. وكم من قوَّةِ زندٍ هزمَتْها نظرةُ عينٍ!

هُما يتشارَكان أيضاً حبَّهُما ليارا مع اختلافِ الأدوار..

ولعلَّ سعد هو المُستفيدُ الأكبرُ والمُستثمرُ الرابحُ في هذه الشراكة مُتَّخذاً من حامد ذريعةً للتقرُّبِ منها والبقاءِ في فلَكِها قدرَ المُستَطاع..

فهناك ولا بدّ مَهام رجوليَّة لن تقوى على إتمامِها إلا بمَشورَتِهِ وستُضطَّرُ إلى الاستعانةِ بصديق.. وتلك هي البدايةُ فحسب.. فكرةٌ ماكرة.. لكن لغرضٍ شريف..

مَضَتْ ساعاتُ العملِ بسرعة وحانَ وقتُ عودة الجميع إلى بيوتهم..

أحدُهم فقط سيختبرُ مَنزلاً جديداً اليوم ولا نعلمُ مَدى تَقَبُّلِه لهذا الوضعِ الطارئ..

أمسَكَتْ يارا يدَ حامد برفق هامسةً في أذنه "هل تعرف إلى أين سنذهب الآن؟ سَأعرِّفك على مَنزلي.. ونلعبُ ونلهو معاً.. لكن قبل الذهابِ إلى البيت ما رأيك أن نتناول طعاماً شهيَّاً؟

بيتزا مثلاً في مطعمٍ جميلٍ ستحبّه كثيراً.. كلُّ الأطفال بالإجماع يحبُّون البيتزا ولا يختلفون على لذَّتِها".. هزَّ حامدُ رأسَّهُ وغمزَ بِعينَيه وأومى لها بالمُوافقة.. وإن كان لا يَعلَمُ تماماً ما هي البيتزا....

بطبيعةِ الحالِ.. لا خيارات أخرى تسرَحُ في رأسِهِ الصغير المُشوَّش.. وهذا أفضلُ المَوجود.. بل وكلُّ المَوجود..

صَعدا مَعاً إلى السيارة وجلسَ الصغيرُ في المقعد الأماميِّ بحماسة.. يُحبُّ مُعظمُ الأطفالِ الجلوسَ إلى نافذةِ السيارةِ وخاصَّةً في المقعد الأماميِّ ومُراقبةَ العالمِ الخارجيِّ.. ويا حبذا لو أتيحَتْ لهمُ فرصةُ التحكُّمِ بالمِقوَدِ أو تجربة إطلاقِ زمورِ السيارةِ بضع مراتٍ..

السيارةُ بِرُمَّتها فضاءٌ غريبٌ يُغري حامد.. هو لم يَعْتَدْ ركوبَها.. فجُلُّ تحركاتِه وأمّه سيراً على الأقدام أو في حافلات النقل العامَّة.. وفي أحسنِ الأحوال قد يبتسمُ له الحظُّ أحياناً فيمتطي دراجة جارهِم "أبو حسن" الناريَّة وهي مركونةً أمامَ عتبة دارهم في حيِّ بستانِ القصر..

لم تستشعِرْ يارا غرابةَ الوضعِ حتى جَلسَتْ بجانِبِه خلفَ المِقْوَد.. هي غيرُ مُعتادةٍ أن يُرافقها أحدٌ لدى انصرافها في طريق العودة إلى المنزل..

كانت تجوبُ شوارعَ المدينة قليلاً وهي تستمتعُ بالوحدة سارحةً بأفكارها قبل أن تركنَ في حيِّها..

تُمضي مساءَها وحيدةً.. تتعشَّى بمُفرَدِها.. ثم تخلدُ للنوم وحيدة..

أما الآن فيترتَّبُ عليها أن تملأ الصمتَ الذي بينَها وبين حامد بما يُشعِرُهُ بالأمان والطَبطَبة.. كم تكرَهُ تنميق الكلام وزخرَفَتَه!

تحبُّ الصغارَ.. نعم.. لكن لا خَلاقَ لها على مُجاراتِهِم مُطوَّلاً والانحناء لمستوى عالمهم ومَدارِكِهِم كلَّ الوقت..

"لننطلق الآن إلى أطيب وأشهى بيتزاااا".. هتفَتْ مُبتسِمةً وهي تُديرُ محرِّكَ السيارة فابتسم حامد بخجلٍ وهو يُراقِبُ كيفَ تَقودُ هذه المَركبةَ العَجيبةَ..

فكَّرَتْ في أنَّهُ ليس من الحكمة أن تصطحبَ الصغيرَ إلى الأماكن العامة كثيراً مَخافة أن يتعرضَا لموقفٍ يُجبرها أن تُعرِّفَ بِهويَّتِهِ..

"لعلَّه من الأفضل أن نلغيَ فكرةَ المَطعمِ.. ونشتري البيتزا ونأكلها في المَنزل لكن كيف سأتراجعُ عن وعدي وأقنِعُ حمودة!".. هَمَسَتْ في سِرِّها قبل أن تنتَبِهَ أنَّه غفا من شدَّة التعب الذي تَكبَّدهُ اليوم..

"مُمتاز.. هذا سَيُسَهِّلُ عليَّ مَهمةَ التملُّصِ من دعوةِ المَطعمِ"..

رَكَنَتْ السيارةَ وأقفلتْ مَنافِذَها أمامَ مُجمَّعٍ تجاريٍّ.. وفي عُجالةٍ وخفَّة تسوَّقت بعض الأشياء مع البيتزا.. أصبحت الحلوى والسكاكر الآن بنداً ثابتاً على قائمة المُشتريات حتى إشعارٍ آخر..

هذا أوَّلُ الغَيثِ وربَّما تزدادُ البُنودُ لاحقاً.. العلمُ عندَ الله!

لحُسْنِ حَظِّها كانَ مَساءً هادئاً نِسبيَّاً.. فكونها أوَّل ليلةٍ للصغير في بيتِها.. أرادَتْ أن يَشعُرَ بالأريحية والطمأنينة.. وسارت الأمور على ما يرام كما تمنَّتْ..

لم يعكِّر صفوَ هدوءِ الحيِّ أيُّ قذيفةٍ أو إطلاقُ رصاصٍ.. ليتَ الوضعَ يبقى هادئاً هكذا على الأقل إلى أن يَألفَ حامد مكانَ إقامَتِهِ الجديد..

تناولا البيتزا معاً وتعرَّفَ الصغيرُ على ملامحِ بيتِها دونَ أن تسمحَ له بالاقترابِ من الشُرفةِ المُتَهَتِّكة.. بلْ وأقفلَتْ بإحكامٍ باب الغرفة المُؤديةِ إليها.. مَخافة أن يُغافِلَها ويَخرُجَ للشرفَة دونَ أن تَنتبه..

هكذا هم الأطفال دائماً.. فضوليُّون.. لا يقدِّرون حدودَ الخطرِ.. يحبّون الاستكشاف والهواء الطلق وعلينا أن نبقى في فلكهم لضمانِ سلامَتِهم..

حان الآن موعدُ النومِ بعد أن استمتَعْنا ببيتزا العشاء.. ولعبنا قليلاً بالجوَّال.. ثم زُرنا الحمَّامَ لقضاءِ بعضِ الحَاجاتِ التي لن نخبرَكُم عنها... وأخيراً تسابَقنا إلى السَرير..

أفرَدَتْ لهُ وِسَادةً صغيرةً قُربَ وسادَتِها ودفَعَتْ السريرَ ليلاصِقَ الحائطَ كَي تُحاصِرَهُ حتى في نومِهِ وأحلامِه..

كَم هيَ صَعبةٌ هذي الأمانة!

عليها أن تكونَ حَذِرةً ومُحتاطَةً لكلِّ تَحرُّكاتِه.. لن يُسمَحَ لَهُ بالاقترابِ مِنَ الشُرفةِ أو بابِ المَنزلِ أو فرنِ المَطبخ أو نوافذِهِ المُنخَفِضَة..

لذلِكَ أرادَتْ أن تُحاصِرَهُ حتى في السَرير مَخافَة أن يَستيقظَ ليلاً ويغافلها فيُحرِّكه فضُولُه دونَ أن تَشعُرَ وهيَ غافية..

قفزَ بخفَّةٍ وتمدَّدَ على السَرير في الجهة المُحاذيةِ للحائطِ بسروالِه وقميصه الداخلي وبدأ يتلو المعوذات بمخارج حروفه المُتلعثِمة وصوتِه الضعيف ونفَسِه القصير المُتقطع الذي تتخلله تثاؤباتٌ مُنهَكَة..

استلقت يارا بمُحاذَاته وهي تتأمَّله بمُتعةٍ واستغرابٍ مُتَّكِأةً على ذراعها الأيسر ومُلاعبةً شعرَهُ بيدِها اليُمنى..

نعم.. لقد علَّمَتْهُ بديعة أن يقرأ المَعوذات وآية الكرسي قبلَ النوم.. وها هو بشكلٍ عفويٍّ يُمارسُ طقوسَهُ المُقدَّسة حتى مع اختلافِ المكان والأشخاص..

لم يتطلَّب الأمر أكثر من عشرِ دقائق حتى غطَّ في نومٍ عميق.. تسمَّرتْ يارا في مكانها مُتأمِّلةً تفاصيلَ هذا الكائن الصغير الذي لا حولَ له ولا قوَّة إلا بالله..

هوَ صغيرٌ للغايةِ قياساً بحجمِ هُمومِ هذه الدنيا.. كيفَ سيُكمِلُ مَسيرَتَه فيها.. هذه الأنفاسُ التي يصعَدُ ويهبِطُ معها قفصه الصدريُّ الصغير كيف سَيَتَسنَّى لها الاستمرارُ بدونِ أهل؟

"ماذا تخبِّئُ لك الأيام يا بُنيَّ!"..

للمرَّة الأولى في حياتها تشعُرُ برغبَةٍ في نُطقِ هذه الكلمة.. "بُنيَّ"..

للمرَّة الأولى في حياتها تنفرِدُ بكيانٍ صغيرٍ من دمٍ ولحمٍ هكذا لتتكفَّلَ رعايته من الألفِ إلى الياءِ.. وهي اللامبالية التي تستحق الميدالية الذهبية في الغوغائية والفوضى المُنظمة..

"تُرى أينَ بديعة الآن؟ وكيفَ تشعرُ بعيداً عن فلذة كبدها؟ لا بدَّ وأنَّها تتألمُ كثيراً..

صدقَ من قال: عندما تقررينَ الزواج والإنجاب فقد قررتِ أن يكبر قلبُك خارجَ جسدِك..

هو شعورٌ غريبٌ وجديدٌ معاً.. أن تحتضنَ هذا الكمَّ من البراءة والنقاء وتراقبَ كيف يكبُرُ لتشوبَهُ عثراتُ الحياةِ فتفسد براءته شيئاً فشيئاً"..

تزاحَمَتْ الأفكارُ في رأسِ يارا وهي تحاولُ أن تستوعبَ منصِبَها الجديد.. الأمّ المُؤقَّتة البديلة..

يا لحظّها! تهربُ من توصيات الحاجَّة ناديا لها بالزواج والإنجاب.. لتجدَ نفسها أُمَّاً عازبة الآن فجأةً وبدون دورةٍ تأهيليةٍ أو شريكٍ يحمِلُ معها هذا العبءَ في زمن حربٍ استثنائيةٍ كهذه..

شيءٌ عجيبٌ يقبَعُ في أعماق نفسِ كلِّ أنثى طبيعية ولا وعيها.. يختبئُ ثم يتغلغلُ في ثنايا قلبِها ويترصَّدُ مُتحفِّزاً في انتظار اللحظة المُناسبة ليقفز فجأةً فَيُثيرَ عاصفةً من المشاعرِ والأحاسيسِ الأستروجينيَّة تُطيحُ بتحَجُّرِها وجُمودها دفعةً واحدة.. ربما كانت تُكابر أو تستَحي أن تعبِّر عنها أمامَ الناس!

أمَّا وقد اختلتْ الآن بهذا الكائنِ الصغير البريء فطريّ التصرفات.. فلا بأس بالمُكاشفة وتسريبِ بعض المُصارَحات مع النفس..

مجرَّدُ مراقبة نوم هكذا طفل وتحسُّس بشرتِه الناعمة وأصابعه الصغيرة ونَفَسه الدافئ يحفّز مُخيِّلتها..

تُرى كيفَ سيكونُ شكلُ ابني فيما لو أنجبت؟

دعونا من أبيهِ الآن..

ولنتخيَّلهُ نسخةً عن أمِّهِ لكن بشعرٍ قصير.. وربما تكون فتاة.. لم لا؟

الفتياتُ أجملُ وألطفُ.. ببكلةِ شعرها التي تُشبه النافورة على رأسها وتُلاحَظُ أكثر مِن شعرها الناعم الخفيف نفسِه.. وسِنَّين صَغيرَين يتوسطان لثتها.. يدَّعيان البراءَة والمُسَالَمة لكنَّهُما حادَّانِ قاطِعان كما السكِّين.. لا يُستَهانُ بغدرِهِما..

إذا كانت تحمِلُ كلَّ هذا الحبِّ لحامد الصغير الذي لا تصِلُها بهِ أيُّ قرابةٍ أو رابطةُ دمٍ.. فكيفَ هوَ الحالُ مع جنينٍ يَستوطِنُ أحشاءَها ليشارِكها الماءَ والهواءَ والطعامَ والانفعالات ويُوثِقهُما حبلُهما السِريُّ مَعاً!

مُؤكدٌ أنَّها حالةٌ ساحرةٌ تلكَ التي تُغلِّفُ الأمَّ وهي تستشعرُ حركةَ صغيرِها في جَوفِها..

عندما ترى جدارَ بَطنِها يَتموَّجُ وهي تعلمُ أن ثمة كياناً هشَّاً يَتربَّعُ تحته ويحاول إثباتَ وجودِه ليقولَ.. "أنا هُنا".. مع كلِّ ركلةٍ!

جميلةٌ هيَ الطفولةُ ولا تليقُ بها الحروب..

يشعرُ المرءُ بالأسى والأسف على أطفالِ بلادِنا.. سُلِبَتْ براءَتُهم.. وجُرِّدُوا من امتيازاتِهم واستحقاقاتِهم.. وزُجَّ بهم باكراً في مُعتَرَكِ الحياة..

مع خيوطِ الشمسِ الأولى استيقظتْ الـ (نصفُ أسرة) التي وُلِدَتْ بالأمس.. لِتولَدَ مَعَها طقوسٌ يوميَّةٌ جديدة..

كوبُ الحليبِ الذي باتَ فرضاً من فروضِ الصباح.. حقيبة الزوَّادَة التي تُملَؤ عن بكرةِ أبيها بالفواكه والحلويات والبسكويت ليحملَها حامد معه في دوامِه اليوميِّ بصحبةِ يارا..

إجراءاتُ دخولِ الحمَّامِ والنظافة الشخصية قبل ارتداء ملابس الخروج..

تلفازُها الذي أصبَحَتْ لا تُدارُ عليه إلا قنواتُ الكرتونِ..

حتى السيَّارةُ أُجرِيَتْ عليها بعضُ التعديلات وَوُضِعَ في مِقعدها الخلفيِّ وسادةٌ صغيرةٌ في حالِ غَالَبَنا النُعاسُ وقرَّرنا أن نَغفُوَ قليلاً أثناء المشاوير الطويلة.. وعُلِّقَتْ على مرآتِها الأماميَّة دميةٌ صغيرةٌ للرجل الوطواط بطلبٍ مِن ضَيفها المُدَلَّلِ..

رِتمٌ جديدٌ للحياة طغى على عالمِ يارا وصبَغَهُ بصبغةٍ غريبةٍ.. ليُلازمَها الإنهاكُ والشحوبُ سِيَّما في الأيام الأولى على الرغم من الدعم الذي تَلقَّتْهُ من بَسمَة وسعد في مساعدتِها بشراءِ حاجياتٍ وملابسَ جديدة لحامد.. والترويحِ عنه بمشاوير يومِ الجمعة لتنعمَ هي بالخلوة التي تحبُّها والتي باتتْ تَفتقدُها في إطارِ مسؤولياتِها ووضعها الجديد.. إلا أنَّ اعتبارهُ أمانة في عنقها أتعبَ أعصابَها كثيراً.. فلا تغفلُ عينُها عنه.. وبالكاد تأتَمِنُ عليهِ سعد وبَسمَة فقط.. مع قائمةٍ من التحذيرات والتوصيات قبل كلِّ مشوارٍ بصحبةِ أيٍّ منهُما..

حتى نومها باتَ مُتقطِّعاً مُضطرباً وهي تتفقده أكثر من مرَّةٍ ليلاً خاصَّةً في الليالي التي تشتَّدُ معها أصواتُ الاقتتالِ والقذائف..

حامد أيضاً اعتادَ عليها.. وأدمنَ النوم في حِجرها حين تغفو عينيهِ وهو يتفرَّجُ مَعها على آخر برامج الأطفال المَسائية وشارةِ الختام التي تجلبُ النعاسَ بطيورها اللطيفة المُسترخية على قناة البراعم..

اعتادَ أن يشربَ حليبَ الصباحِ معَها في كوبه البلاستيكي الأزرق وهي تَحتَسي قهوتَها في فنجانها الخزفيِّ الأبيض المُزَهَّر.. وأن ينظِّفَ لها زجاج السيَّارة من الداخل بالمِمسحةِ الصغيرة المُخصَّصةِ لهُ.. هو بالطبع يذكُرُ أمَّه وأختَهُ كلَّ يومٍ ويسألُ عنهُما.. متى ستعودانِ من السفر؟ ماذا ستُحضِران له من ألعاب وهدايا؟ وكيف أنَّ أمَّهُ ستفرَحُ كثيراً لأنَّها ستَراهُ أكبَرَ.. وستَبرُزُ له عضلاتٌ مثلُ سوبرمان أو سبايدرمان إذا واظبَ على شُربِ الحليبِ وإنهاءِ وجبةِ غدائِهِ بالكاملِ كالأبطال.. لكنَّهُ ومع انتظارهِما بشوق.. سعيدٌ أيضاً بصحبَةِ يارا..

كانت أمُّ يوسفَ مُحقَّةً عندما قالتْ "... ولا مجال لائتمانِ أحدٍ غيرك عليه.. أعرفُك جيداً ولا أثقُ بسواكِ.. فضلاً عن أنَّهُ يحبُّك كثيراً ولن يشعرَ بالغربة بعد سفري إن كنتِ تتردَّدين عليه..."...

ما زالَ صَدى صَوتها وَوَقعُ كلماتِها وهي تستجدي العونَ يطرقُ مَسامِعَ يارا...

من حسنِ الحظِّ أنَّ حامداً لطيفٌ وليس مُشاكساً أو فظاً..

هو بطبيعة الحال هادئٌ وحَذِر.. لا يشاغبُ كأقرانِهِ.. ربَّما كان فقرُ الحالِ وشظَفُ العَيشِ هُما السَببُ في انكسارِه وتَدَنِّي شعورِهِ بالاستحقاقِ.. ورضاه بأيِّ شيء.. فالحياة الصعبة التي اختبَرَها في حلب الشرقيَّة سلبَتْ منه هامشَ مُستَحقَّاتِهِ وصلاحيَّاتِ طفولته.. وجعلته يكبر قبلَ أوانِهِ.. ويظنُّ أنْ ليس من حقِّه أن ينعمَ بالدلال والرعاية.. وهذا ما جعله مُمتَنَّاً أيضاً ليارا ويقدِّرُ احتواءَها إيَّاه.. ليبادِلَها حُبَّاً بحبٍّ أكبرَ..

مَرَّ أسبوعان على غياب بديعة التي لا أخبارَ منها أو عنها.. إلى أن أُتيحَت الفرصة ليارا للاستقصاءِ عن بعض الأخبار ممَّن كانوا على صِلةٍ بها في حيِّ بستان القصر..

هي تعرفُ اسم المَرأة التي أتَتْ بحامد لتُودِعَه أمانةً لدى مكتبهم حين سافرت بديعة.. واليوم تمَّ تكليفُها وفريق عملها بإجلاء مرضى

ومُصابين مدنيين من حيِّ بُستان القصر بعد تقييم حالتِهم الصحيَّة من قِبَلِ لجنةٍ طبيّةٍ مُرافقة..

يُسمَحُ لمُوظَفي المُنظماتِ الدولية الإنسانية وفقَ قائمةِ أسماءٍ مُتَّفَقٍ عليهاً مُسبقاً أن تتغلغلَ في كلِّ الأطراف ضمن تفاهماتٍ مُعيَّنة لتؤديَ واجبها الإنساني بغِضِّ النظر عن التناحُراتِ السياسية والعسكرية على الأرض.. وهي تُنقِذُ بذلك مَن يمكنُ إنقاذه مِن الأطفال والعجائز وذَوي الاحتياجات الخاصَّة..

والفصائل المُسلَّحة التي تُسيطرُ على الشطر الشرقيِّ من حلب تُحدِّدُ لهم نطاقَ سلامةٍ ضيِّقٍ للتحرُّك في حدودِه لا يُسمَحُ بتجاوزِه.. ومَن يتخطَّاه يتحمَّلُ بنفسه مسؤولية سلامَته الشخصية..

ففي حلبَ الشرقيَّة خليطٌ من الكتائب والألوية المُتَداخلة.. ولكلٍّ منهم رأسٌ وزعيم.. وسياسة وسَاسَة..

ولكم أن تتوقَّعوا حالَ ومَذاقَ الطَبخة.. حينَ يكثُرُ طبَّاخُوها!

بُستانُ القَصر تُرحِّبُ بكم

أحدُ أحياء حلبَ الشرقيَّة.. إن لم يكنْ أهمّها وأكثرها شهرةً في هذه الحرب.. وتكمنُ أهميَّتُه الاستراتيجية في وقوعِه على خطِّ التماسِ بين جيشِ نظام الأسد وكتائبِ مُسلَّحي المعارضة على اختلاف تَعاقُبِها..

يُشرفُ الحيُّ على المّنفَذِ الوحيدِ الذي يُعتَبَرُ شِريانَ الحياةِ بين شَطرَي حلبَ الشرقيّ والغربيّ وهو "المَعبر"....

مَعبرُ "بستانِ القَصر" أو مَعبرُ "كراج الحَجْز" أو ما سُميَّ أيضاً بمعبرِ "المَوت"!

تجتازُهُ يوميَّاً في جوٍّ من الفَزَع والذُعْرِ والهِيستيريا حُشودٌ غفيرةٌ مُتزاحمة ممَّن بارِكَ الله في أعمارِهم وكتبَ لهمُ النجاة والوصول إلى الشطرِ المُقابلِ..

فيما يَسقطُ على أعتابِهِ العديدُ من ضحايا القنصِ ممَّن كُتبَ لهمُ المَوتُ..

هو في الحقيقة طريقٌ مُمتَدٌّ بين حيِّ المَشارقة الذي يُسيطرُ عليه نظام الأسد.. وبينَ حيِّ بُستانِ القصر الذي تعاقَبَتْ في السيطرةِ عليهِ كتائبُ عِدَّة.. أشهرُها حركةُ أحرارِ الشام بأميرِها الذي كان يتولَّى التنسيقَ مع المُنظمات الإنسانية في حالاتِ تبادُلِ الأسرى والمخطوفين والجَرحى والمَرضى.. بل وحتى الجُثث التي كانت توضَعُ في أكياسٍ كبيرةٍ وتُحمل على عرباتٍ فيعُبَرُ بها إلى مأواها الأخير.. حيث يصعُبُ في طريق العبورِ هذا استخدامُ وسائل النقل نظراً لوعورَتِه والضررِ الذي لحقَ به جرَّاءَ تبادلِ القصفِ المُتواصل..

خرابٌ كبيرٌ لا يَسَعُكَ استيعابه ووصفه عندما تُشرفُ على تلك المناطق..

الوضعُ أشبَهُ بمدينةِ أشباحٍ مُدمَّرةٍ وخاويةٍ إلا من أصواتِ الأنين واستغاثاتِ مَن ما زالوا يملكون رمقَهُمُ الأخير..

مركزُ المَعبر مُستودعٌ ضخمٌ أو ما يسمى "هنغار" أُحدِثَتْ فتحةٌ كبيرةٌ في إحدى جدرانِهِ المُطِلَّة على الشَرق.. وأخرى في إحدى جدرانِه المُطِلَّة على الغَرب كبوَّابتَيّ عبورٍ تُساقُ بينهما وتتدافعُ جُموعُ المَدنيين كالقطعان في مسارِ العبور المُخيفِ هذا بين الطرفين تحت وابلٍ من الرصاص بين الحينِ والآخر.. و(أنتَ وحظّك)..

على يارا وفريق عملِها بين الحينِ والآخر كمُمثِلين عن منظمتهم الإنسانية التفاوض مع مقاتلي الشطرِ المُقابِل أيَّاً مَن كانوا.. كتائبُ جبهةِ النُصرة.. الجيشُ الحرّ.. أو داعش.. لتمريرِ اتفاقياتِ إجلاء بعضِ الحالات الصحيَّة الحَرجة.. أو إدخال مُساعداتٍ خيريَّةٍ للمُحتاجين..

كانَت تتردَّدُ كثيراً على الأحياءِ الشَرقيَّة لاستطلاعِ الحَالاتِ الإسعافية وإعداد تقارير وصور عنها لترفَعها إلى الجهات العليا في عملها توطئةً لعملية الإجلاء.. كَما تَقومُ بتوزيعِ المُتاح من المُساعداتِ الإنسانية ما إن يسمح الوضعُ بذلك.. حتى باتَتْ وجهاً مألوفاً بل ومَحبوباً لدى أهالي الحيِّ هناك وتعرَّفت في إحدى الجَولاتِ على بديعة وأولادِها وتَوَطَّدَتْ علاقتُهم منذُ ذلك الحين..

يُسمَحُ لها ولفريقها عادةً وبشكلٍ مَحدودٍ بالتحرِّك في مُحيطٍ مُراقَبٍ.. في إطار خط سيرٍ ضيِّقٍ يُمنَع أن تحيدَ عنه.. وتُعطى مُهلةً زمنيةً مُحدَّدة لإتمام مهمتها تحت طائلةِ ما لا تُستحبُّ عُقباه..

لا تشاركُ بَسمَة في هذه الجولات بل تنتظِرُ في السيارة عند الحاجز العسكري للنظام في حيِّ المشارقة كنقطةَ ارتباطٍ بين مكتب المُتابعة الرئيسيِّ وبين رفاقها في الطرف الشرقيِّ في حالِ اعترضَتْ مشكلةٌ ما سيرَ المفاوضات أو عند إضافةِ شروطٍ جديدةٍ لإبرامِ الاتفاقيات..

وتبقى في انتظار باقي أعضاء الفريق دون أن تتدخَّلَ بشكلٍ مباشر مَخافةَ أن يكتشف أحدُ الغُرباء الوافدين المُتأسلمين هناك أنَّها مَسيحية..

الحذرُ والحِرصُ واجبان في هكذا ظروف.. فمهما بدت الأمور مُطمئِنةً والأشخاصُ وَدودين ويعاملونك باحترامٍ ولباقة عليك التحفُّظ وأخذ الحِيطة.. فالكثير من المُسلحين هناك غرباء.. حتى أسماؤهم غير معروفة بل يُكَنّونَ بألقابٍ اختاروها مؤخراً ليُعرَفوا ويتمايزوا بها.. ولا تستطيعُ أن تتكهَّنَ بتصرفاتهم ونواياهم وردود أفعالهم..

من شرور هذه الحرب أنَّها أتَتْ بالغُرباء إلى البلد.. ولا يُؤتَمَنُ على الأرض ولا يَخشى عليها مِثلُ أهلِها.. جبهاتٌ كثيرةٌ مفتوحة بأجنداتٍ وتمويلاتٍ مُختلفة.. وتتداخل التحالفات وتختلفُ مع اختلاف الظروف والمصالح وتقلُّباتِها..

تنتظرهم اليوم مهمةُ إجلاءِ امرأةٍ مُسنَّةٍ مُصابَةٍ بقصورٍ كُلويٍّ تحتاج إلى عمليات غسيل كِلىً دوريَّة غير متاحةٍ لها في الشطر الشرقيِّ.. فمعظم المشافي تمَّ استهدافُها وقصفُها ببراميل الأسد الغبية وهي بِالكاد تَفي بأغراض التداوي والاستشفاء البسيطة.. كمعالجة جروحٍ وأمراضٍ من العيار الخفيف.. أما مع حالةٍ كأمِّ عمرَ فليس هناك إمكانياتٌ لمتابعة العلاج.. والأجدَى أن تُنقَلَ بشكلٍ عاجلٍ إلى مشافي الطرفِ المُقابِل..

أعدَّتْ يارا تقريرَها وتوجَّهتْ بصُحبةِ سعد وفريق عملها إلى المشارقة ليركنوا سياراتِهم على حافَّة المَعبر من جهة الحاجز العسكري الأسدي.. في حين بَقِيَتْ بَسمَة في السيَّارة بصحبة الصغير حامد في انتظار إنجاز المهمة..

لحُسنِ الحظ كان المَعبَرُ مُغلقاً يومها أمام عامة المَدنيين واستغلَّ الجميع خلوَّهُ لإتمامِ مهمَّتهم بارتياح..

تقدَّمت يارا وصحبُها عُزَّلاً وبأيدٍ مرفوعةٍ كالعادة ليتجاوزوا المنطقة الفاصلة سيراً على الأقدام مُروراً بالمستودع وصولاً إلى مَشارف

الحيِّ حيث كان في استقبالهم رجلٌ ضخمٌ عريضُ المَنكَبين عاقدُ الحاجبين.. كثُّ اللحية.. أكحلُ العينين.. يعصبُ رأسه بوشاحٍ خمريٍّ.. ويحملُ رشاشاً في يده.. يُكنَّى بأبي الوَليد..

"أهلاً وسهلاً بالخَواجات".. هتفَ أبو الوليد مبتسماً في إشارةٍ ودودةٍ إلى عملهم مع منظمةٍ دوليَّةٍ وصِلاتِهم بالخارج.. مُوعِزاً لبعض رجاله المُتحفِّزين على مُقربةٍ منه للمباشرة بتفتيش أعضاءِ الفريق الضيف..

يتمُّ عادةً تفتيشُ الرجالِ فقط دونَ النساء والتأكدُ من هُويَّاتهم قبل السماح للجميع بالدخول..

"هل أحضرتم قائمة الأدوية المَطلوبة كلَّها معكم".. سألَ أبو الوليد مُوجهاً كلامَه لسعد..

"نعم وتستطيعُ التأكُّدَ من الأنواع المطلوبة وفترة صلاحيتها".. أجاب سعد مُشيراً إلى رفاقه الذين يحملون صناديق الأدوية.. "هي مع الشباب بإمكانكم استلامها منهم الآن.. وأين الحاجَّة أم عمر؟"..

"في الحفظِ والصَونِ في انتظاركم في دارها مع كرسيِّها المُتحرِّك.. لكن علينا أولاً أن نتفقَ على صفقةِ تبادلٍ جديدة..

وردَتنا أخبارٌ عن وفاة ثلاثةٍ من شبابنا تحتَ التعذيب في فرع الأمن العسكريِّ بحلب.. ونريد جثامينهم الطاهرة مُقابل مُجنَّدَين اثنين لهم قُتِلا على جبهات الريف معنا واستطعنا سحب جثثِهم واحتجازها.. الأسماءُ مُقيَّدةٌ عندي هنا في قائمة".. أشارَ أبو الوليد بيده بعد أن أخرَجَ من جَيبه ورقةَ أسماءِ المَعنِيين..

كان لا بُدَّ هنا أن تتدخَّلَ يارا في الحديث باعتبارها المسؤولة الأولى عن اتخاذ القرارات بتفويضٍ من إدارَتها..

"لن نختلف على شيءٍ إن شاءَ الله والكلُّ سيكون راضٍ هنا.. لكن دعونا نُنهي موضوعَ أمِّ عمر والمساعدات التي بحوزتنا أولاً ثم نتفق

على ما استجدَّ الآن.. ليس من مَصلحةِ أحدٍ الاحتفاظ بجثثِ الطرفِ الآخر وسوف نجدُ حلاً للأمر.. أعِدُكَ بذلك يا أبا الوليد"..

هزَّ أبو الوليد رأسَه وأومى لها بالموافقة والرضا قائلاً:

"توكلّنا على الله.. وكلامك على العين والراس دائماً يا أخت يارا.. تفضلوا لاستلامِ أمِّ عمر ودعونا نتسلَّم المُساعدات من الشباب"..

في هذه الأثناء كانت بَسمَة تتلقى الاتصالات من فريق المتابعة في دمشق للاطمئنان على سير الأمور في عملية المعبر وشَرْحِ بعضِ التفاصيل والتوصيات المُتعلِّقة باستكمال إجراءات علاج المريضة ما أن يتمَّ نقلُها إلى حلب الغربيَّة..

هي تتولَّى همزةَ الوصل بين يارا من جهة باعتبارها الوحيدة التي يُسمَحُ لها باصطحابَ جوَّالِها وبين توجيهات الإدارة في دمشق من جهةٍ أخرى فانشغلَتْ بتدوينِ بعضِ المُلاحظات وغفلت للحظاتٍ قليلةٍ عن الصغير حامد الذي كان يتفحَّصُ المَكان بملءِ مُقلتَيه ويجري مسحاً له من نافذة السيارة كَمَن استعادَ ذاكرته للتوّ..

ففي هذه الأحياء ولِدَ وتربَّى ولعِبَ وتعِبَ خلال السنوات القليلة التي أحصاها عمره إلى الآن..

هو يحفظُ هذا الطريق عن ظهرِ قلب.. فكم من مرَّةٍ عَبَرتْ به أمُّه بين الشطرين الشرقيِّ والغربيِّ من حلب.. علاوةً على أن بستان القصر هو حيُّهُ الذي كان يعيش فيه قبل أن تُودِعَهُ بديعة في عهدة يارا..

توسَّعَتْ حدقتا الصغير دهشةً وفرحاً ويبدو أنَّه اعتقد أنَّ أمَّه هي ولا بُدّ موجودة الآن في الحيِّ وأنَّ يارا قد تكون في زيارةٍ لها الآن..

وعلى غير عادته.. وفي غفلةٍ من بَسمَة التي انشغلتْ هُنَيهةً بمراسلاتها مع دمشق فتحَ بابَ السيَّارة بخفَّةٍ وقفزَ مُسرِعاً صَوبَ طريق المَعبرِ إلى الطرف الآخر الذي كان خاوياً لا يتحركُ فيه شيء..

نعم.. هوَ طفلٌ هادئٌ وعاقلٌ ولا يتصرَّفُ عادةً بشغبٍ أو رُعونة.. غيرَ أن الحافز الاستثنائي كان أقوى من سكونِه.. وفطرته هي التي حرَّكتْه الآن ليقودَهُ الشوقُ إلى حيث ديار أهلِهِ ودون تفكيرٍ أو حسبان فيتجاوزَ أكوامَ الحجارةِ ليندسَّ فيما بينها حتى باتَ في لحظاتٍ على مشارفِ بُستان القصر.. ولم تثنِهِ نداءَاتُ بَسمَة له بالعودة.. بل تابع طريقه بإصرارٍ أكبرَ مَخافَة أن يتمكَّنَ أحدٌ من اللحاقِ به وإعادته إلى السيَّارة..

هكذا همُ الأطفال.. لا يُدركون مخاطر وتَبِعاتِ أفعالهم.. ولا يدخل المنطقُ في حساباتهم عندما يغريهم شيءٌ ما وبشدَّة..

لم تتمكن بَسمَة من فعل أيِّ شيءٍ حيالَ المُوقف..

هي عاجزةٌ تماماً ولا تستطيعُ مُغادرة السيَّارة تجاهَ المعبر ولم يتعدَّ ردُّ فعلها أكثرَ من مُناداةِ حامد ومحاولة استجدائه ليعود.. دون جَدوى..

هيَ لا تستطيع من مكانها هذا وفي هذا التوقيت بالذات أن تُثيرَ جلَبةً.. فأيّ حركةٍ ارتجاليَّةٍ غير مَحسوبةٍ أو صوتٍ غير اعتياديٍّ قد يدفع المُجندَين في نقطة الحاجز العسكري إلى إطلاق النار دون اكتراثٍ أو تمييزِ بين صغيرٍ أو كبير.. ولا أحدَ يمكنه التكهُّن بحجم المصيبة وقتها..

بالكاد تَمَالَكَتْ نفْسَها ولم يكن في وسعها إلا الاتصال مباشرةً بيارا على الجانبِ الآخر لعلَّها تتلقَّفُ الصغيرَ في الداخل أو تستدِّلُ عليه قبل أن يُلحِقَ بنفسه الأذى أو يصيبه أيُّ مكروه..

"يا إلهي ماذا سأقولُ لها الآن؟ كيف أغفلُ عن حامد هكذا؟ لقد باغتني ولم أتوقع منه هكذا تصرُّف.. قليلٌ بحقِّي إن نَصبَتْ يارا مشنقتي الآن"..

تَمَلَّكها الشعورُ بالذنب والحيرة.. ولم تستطعْ أن تُرجيءَ اتصالَها بيارا.. لعلَّها تجدُ حَلاً لهذه المُشكلة قبل تَفاقُمِ الأمرِ وفواتِ الأوان..

كانت يارا قد وصَلَتْ وسعد للتوّ إلى بيت أمِّ عمر وبدأت بترتيب إجراءات إجلائها بصحبة إحدى بناتها لتُلازمها كمرافقةٍ لها في فترة العلاج المُفترَضَة.. وما إن تلقَّتْ اتصال بَسمَة حتى جُنَّ جنُونُها وانقلبَ حالُها رأساً على عَقِب..

"لا بُدَّ وأنك تمزحين بَسمَة.. ماذا أسمع؟ باغَتَكِ وركضَ؟ إلى أين؟

يا إلهي.. كيف تغفلين عن الصغير في هذا التوقيت الحرج بَسمَة؟"..

صرخت يارا وَرَمَتْ الأوراقَ من يدِها واتَّجَهَتْ بلا وعي مُسرعةً إلى الخارج أملاً في أن تُصادِفَ حامد في الجوار قبل وقوعِ أيِّ كارثة..

سعد بدورِهِ لم يستطعْ تَجَاهُلَ الأمر.. أوكَلَ مهمةَ أمِّ عمر لأحد شباب الفريق ولحِقَ بيارا مُحَاوِلاً إن يهدِّئَ من رَوعِها..

"كيفَ تطلبُ منِّي أن أنتظرَ يا سعد؟ الصغير في مكانٍ ما هُنا.. أقول لك (هُنا).. ألا تستوعِبُ خطورَةَ الوضع؟ لا بُدَّ وأنَّه يريدُ تفقُّدَ بيتِه.. عليَّ التَوجُّهَ وبسرعةٍ إلى بيتِ بديعة.. مُؤَكَدٌ سأجده في البيت أو عند جيرانهم"..

أمسَكَ سعد بذراعها قائلاً:

"لا يُسمَحُ لنا بالتوجُّه إلى هناك يا يارا.. ألا تدركينَ أنتِ ذلك؟ إن عَلِمَ أبو الوليد أو أحدُ رجاله بأنَّنا تجاوَزنا خطَّ السيرِ المَسموح لنا لا يُمكننا تخمينُ ردَّةِ فعله.. إنها مسألة حياةٍ أو موت لا تتصرَّفي بحماقةٍ الآن.. لن يحدث شيءٌ للصغير إن شاء الله وسيعودُ أدراجَهُ.. هو يعرفُ المكان هُنا أكثر منِّي ومنكِ"..

"لا أستطيعُ الانتظارَ ليأذَنَ لي أبو الوليد بإنقاذِ حامد.. المكانُ يعجُّ بالغرباء المُسلَّحين.. ناهيكَ عن احتمالِ وجودِ ألغامٍ أو قنابلَ لم تنفجر بعد هُنا وهُناك.. هل أنتظرُ حتى أُفجَعَ بخبرٍ ما عنه؟"..

"أنتِ قلتِها.. المكانُ هُنا شديدُ الخطورةِ.. وهل تُغامِرينَ بحياتك فقط لأنك لا تستطيعينَ الانتظار؟ سنبحثُ عنه معاً لكن علينا أن نُنسِّقَ مع

أبي الوليد.. هوَ رجلٌ خلوقٌ وشهمٌ ومُتعاونٌ ولن يتوانى عن مُساعدتنا"..

تنهَّدتْ يارا كلَّ العجز والخوف الذي اعتراها وفكرَّتْ أنَّهُ عليها أن تتريَّثَ قليلاً وتُفكِّر قبل أن تتحرَّك..

"حسناً وأين أبو الوليد الآن؟ دعنا نرتِّبُ معه تحرُّكاتِنا.. جِدهُ ليَ الآن يا سعد"..

"هوَ على رأس الشارع دعينا نسرعُ ونخبره بالأمر"..

كان أبو الوليد في انتظارهم على ناصيةِ الشارع لحين إتمام تحضيراتِ إجلاءِ أمِّ عمر ليتولى بعدَها إيصالَهم بحمايته عائدين إلى المَعبر.. لكن حساباته اختلفت الآن بعد إخبارِه بوجهتهم الجديدة..

"صلِّ على النبي يا رجل.. نحن لم نتفق على التوغُّلِ في الحيِّ.. اتفقنا أن يكون أقصى مساركم بيت أمِّ عمر.. والمكان الذي تريدان أن تقصداه الآن بعيدٌ عن هُنا.. هوَ في آخرِ بستان القصر.. ولا صَلاحيات لي بالسماح لكما أو مرافقتكما إلى هناك..

وأوَدُّ أن أحذِّركما!

ذلكَ الحيِّزُ يتبعُ لصطُّوف الدِيب وهو رجلٌ أرعنٌ صعبُ المراس لا يعرفُ أباه.. ولن أسمحَ لكما أن تعرِّضا نفسيكما للخطر.. أنتما لستما مِنَّا.. نعم.. ولكنَّنا نحفظُ العهود ونقدِّر أهلَ الخير.. وسلامتكما أمانةٌ في عنقي حتى أعودَ بكما إلى المَعبر"..

كانَ أبو الوليد يوجِّهُ كلامَه لسعد مُستنكِراً طلبَهُ بكلِّ استغراب عندما تدخلَّتْ يارا سريعاً بنَزَقٍ وبنبرةٍ غاضبة وبدا على ملامحها التوتر والقلق معاً..

"اسمعني يا أبا الوليد.. هناك طفلٌ منكم.. مِن أهلكم.. من أهل هذا الحيِّ قد يكون الآن في خطرٍ بسبب تلكُّؤنا وتقاعُسنا في البحث عنه وإيجاده..

ذو الثلاثةِ أعوامٍ هذا إن أصابه أيُّ مكروهٍ فلن أسامحَ نفسي أبداً.. وسأرى حينها كيف يمكنك أن تنامَ قريرَ العين مرتاحَ الضمير..

أرجوك.. الوقت ليس في صالحنا.. اسمح لي فقط أن أتوجَّه إلى هناك واترك الباقي عليّ.. أنا أعفيكَ من مهمة حمايتي مُقابل عدم تقييدي يا أخي.. ما عليك إلا أن تغُضَّ الطرف عني وأنا سأتدبَّر أمري"..

"ما هذا الكلام يا يارا؟ أنتِ حتماً تَهذين.. هي مناطق نفوذٍ هُنا.. لا يمكنك الذهابَ وحدَك والرجل ليس من صلاحياته مرافقتك إلى هناك.. سنغادر الآن ونطلب منه أن يتفاوضَ مع الجماعة المُسيطرة في مُحيط بيت بديعة وكلّ شيءٍ يُحلُّ بالتفاوض.. لا تضخِّمي الأمور".. قاطَعَها سعد..

"لن أغادرَ بدون حامد.. أتسمَعُني يا سعد؟ بإمكانك أن تأخذ الشباب وبصحبتكم أمّ عمر وتعودوا أدراجكم إلى المشارقة أمَّا أنا فلن أتحرَّكَ من هنا إلا لإيجادِ حامد.. وكلُّ ما أطلبه منك يا أبا الوليد ألا تراني وأنا أتحرَّك إلى بيتها.. أعرفُ الطريقَ جيداً ولن أتأخر إن شاء الله"..

"استهدِ بالله يا أخت يارا وغادري الآن مع المجموعة وأنا سأبحثُ عنه وأجدُه وأوصله لك إن شاء الله.. خذيها من هذه الشوارب..

في هذا الشطر هناك من يحملُ السلاح للذودِ عن عِرضِه.. ونصرةً للثورة على طاغية الشام.. وهناك من يحمله للإتجار بالإجرام.. اختلطَ الحابلُ بالنابل ولا أريد أن تكوني فريسةً لضعاف النفوس منهم".. قال أبو الوليد مُحاولاً تهدئتها.. متعاطفاً مع نبلها وفرط إنسانيتها..

"لن أستطيعَ.. صدِّقني.. أشعر أن قلبي سينفطرُ بمجردِ خروجي من هنا بدونِهِ.. اسمح لي فقط أن استطلع مكان بيت بديعة وسأعود سريعاً"..

سكتَ أبو الوليد.. فلم يكن عنده شيءٌ يضيفُه.. عمِل جاهداً على إقناع يارا بالتريُّثِ وتَرْكِ الأمرِ له.. غير أنَّها على ما يبدو لا تثقُ بقدرته على إتمام الأمر.. أو أنَّها تظنُّ أن سعيها أشبه بنزهةٍ قصيرة..

"حسناً يا أخت يارا.. افعلي ما ترَينَه مُناسباً.. أنا استلمت شحنة أدويتي وقلت ما عندي وتذكري أنَّكِ تتحركينَ على مسؤوليتك الشخصية بعد الآن"..

كان هذا آخر تعليقٍ لأبي الوليد قبل أن ينسحبَ هو ورجاله إلى مستودع المعبر في انتظار ترحيل من تبقَّى من الفريق ومعهم أمّ عمر..

"يا إلهي.. بماذا تفكرين يارا.. هل أنتِ جادَّةٌ حقاً؟ أرجوكِ لا تُقحمي نفسك في المَجهول.. الله وحده يعلم ما ينتظرنا في بيتِ بديعة"..

"ينتظرُنا؟ لا تتدخَّل أنتَ يا سعد.. سأذهب الآن ولوحدي ولن أتأخر إن شاء الله.. أنتم تُبالغون في مَخاوفكم.. نصفُ أهلِ الحيِّ يعرفونني جيداً وهم وَدودونَ ومُتعاونون"..

"لن أسمحَ لكِ بالذهاب وحدكِ حتى لو اضطررتُ لتكبيلِك.. رجلي على رجلك.. وذنبي برقبتك إن أصابنا مكروه"..

للمرَّة الأولى تستشعرُ يارا في عيونِ سعد كلَّ هذا الاهتمام والحبِّ والخوفِ الصادقِ عليها.. أضفَتْ كلماتُه على قلبها شيئاً من الطمأنينة..

هيَ في حقيقة الأمرِ لم تكن جاهزة أبداً للمُخاطرة بمفردها.. وقد سَرَّها وأثلجَ صدرَها أنَّ سعد لم يتخلَ عنها في موقفٍ كهذا..

"أُثَمِّنُ غالياً ما تفعله من أجلي يا سعد.. وأسألُ اللهَ أن يكتِبَ لنا عمراً لأتمكَّنَ من شُكرِكَ على الوجهِ الذي يليقُ برجولتك"..

خاطبَتْ يارا سعد وعينها في عينه وكأنَّها تَعِدُهُ بالزواج كمكافأةٍ له إن نجحا في مهمتهما.. أو على الأُقلّ كان هذا ما افترَضَهُ هوَ وتَمنَّاه..

نُزهةٌ في البُستان

يُدركُ كلاهُما أنَّ الأمرَ ليسَ بنُزهةٍ وأنَّه أشبهُ بدخولِ فأرٍ إلى قفصِ قططٍ جائعةٍ بالخطأ... لكن ثمَّةَ ما يدفعهما للمضيِّ قدماً دون تفكير.. ولكلٍّ دوافِعه ومُبرراته..

لعلَّ غريزةَ الأمومة التي كبَتَتْها يارا كلّ هذي السنين قد تفجَّرت الآن تحت الضغوط فلم تعدْ ترى معها سوى وجه حمّودة حين شعرت أنَّه قد يكون في خطر..

أما سعد فيبدو أنَّ غريزةً أُخرَى هي التي تُحرِّكُهُ..

هو بطبيعة الحال لا يَتخيَّلُ أن تغيبَ يارا عن فلكِهِ.. وجودُهُ قربها يعني بالنسبة له الحياة.. وغيابُها أو انقطاع أخبارها هو موتٌ مُحقَّقٌ.. فالخيارُ الأقربُ إلى قلبه وإن كان بعيداً عن عقله هو البقاء معها ومرافقتها فيما عزمَتْ عليهِ أيَّاً كان..

"أنا أعرفُ الطريقَ جيداً.. ما إن نصل لذلكَ البناء المُهدَّم قربَ عمودِ الكهرباء هناك وننعطفُ يميناً سندخل زقاقَ شارع بيتِ بديعة..

هيّا يا سعد دعنا لا نتأخر أكثر من ذلك.. طالما أن الشباب تكفَّلوا بإتمام أمور أمّ عمر"..

"حسناً كما تأمُرين.. أنتِ من الآن دليلتي ومُرشدتي السياحية في هذه المناطق التي أصبحتْ فعلاً تبدو أثريَّة مع كلِّ هذا الدمار.. كم هو مُؤسف!".. أجاب سعد قبل أن يتحرَّكا في عُجالةٍ صَوبَ المَكان المَقصود..

كان المشهدُ مُحزِناً للغاية.. مُعظم الأبنية تهاوَتْ أجزاؤها وبرز تسليح حديدها كالشوكة المَحنيَّة.. بدا من المألوفِ مثلاً أن تشاهد بقايا حمَّام الطابق الثالث (كحوض المغسلة مثلاً) مُعلقة على ما تبقّى من أرضيتها في الهواء.. أو أن تصادف بيت درجٍ لبناء بدون بناء!

ومع ذلك فأنتَ تشعُرُ بنبضِ الحياة شيئاً فشيئاً وإن كان خافِتاً كلَّما ابتعدْتَ عن المَعبر.. وتوغَّلتَ في الشطر الشرقي..

بيوتٌ نِصفُ مُهدَّمة يسكُنها المُستضعفون في الأرض..

أطفالٌ يتربَّعون على قممِ القُمامة والأنقاضِ بحثاً عن أيِّ شيءٍ ذي قيمة يُشعرهم بتحقيقِ مكاسب..

جدَّةٌ تُربِّي أحفادها الأيتام وتَعُولهم مُحاوِلةً إضرامَ النار في بضع علبٍ من الكرتون والبلاستيك المُدوَّر عدَّة مراتٍ برائحته الكريهة لتطهوَ لهم حساءً فقيراً لا تتجاوز نسبة الأرز فيه ١٠ بالمئة والباقي ملح وحشائش ومياه آبارٍ عَكِرة..

لا يدفعُ فاتورةَ حروبٍ قذرةٍ كهذه إلا هؤلاء المَساكين.. لا ناقة لهم فيها ولا جمل.. الجمل بما حمَل لتجارِ السلاح وصعاليكِ وبلطجيَّة الأزمات ممن يزدادُ رصيدُهم النقديُّ كلما ازداد عدد الضحايا وتفاقمَت الأزمة..

وصلَتْ يارا وسعد إلى مَدخلِ زُقاقِ بيتِ بديعة..

وهناك.. سمعَت إحدى سيِّداتِ الحيِّ تُناديها من على شرفةٍ قريبة..

"آنسة يارا.. أهلاً وسهلاً.. ما هذه المفاجأة الجميلة! انتظريني لحظة.. سأنزلُ لمُوافاتِك"..

كانتْ هذه كوثَر.. المرأة التي أتَتْ بحامد إلى مكتب يارا بعد سفر بديعة.. ما إن رأتْهُما حتى وضعت شالَها وعباءَتها وبثلاثين ثانية كانت عند مدخل البناء ترحِّبُ بيارا وتتمنى عليها أن ترتاح قليلاً في ضيافتها..

"أهلاً أهلاً لكن لا وقت أمامنا يا ست كوثر.. علينا إيجاد حامد.. لقد تاهَ مِنَّا هُنا ولا بُدَّ أن وجهتَهُ الأولى ستكونُ إلى البيت.. ألم تلمحيهِ في الأرجاء؟"...

"لا.. لو رأيته لأبقيته عندي.. فبيتُ بديعة لم يعد آمناً له"..

تنحنحت قليلاً ثم اقتَرَبَتْ مِن يارا وقد تضيَّقت حدَقَتاها.. وزمَّتْ شفتَيها وأردَفت بصوتٍ خافتٍ.. "جماعةُ الديب ورجالُه استحلُّوهُ عندما عرفوا أنَّه خالٍ من قاطِنيه.. ولا أخبارَ بعد عن بديعة والبنت.. لا أحد يعرف عنهما أيَّ شيءٍ.. قلبي مثلُ النارِ عليهما".. كان كلام كوثر كفيلاً بتعزيزِ مَخاوف وحذر يارا وسعد..

يبدو أن ما يُشاع عن الديب هو أكثر خطورة وهيبة مما يظنَّان.. لكن ليس أمامَهما خيارٌ آخر.. عليهما تفقُّد البيت أملاً في العثور على الصغير..

"أرجو ألا يكون قد أكلَهُ الديب".. همسَ سعد في أذن يارا بتوجُّسٍ.. فرمقَتْهُ بنظرةِ تَوَعُّدٍ شرسَة.. تحرَّكا بعدها بسرعة تتبعهما كوثر بفضولها صوبَ دارِ بديعة..

وصلَ الثلاثةُ إلى البيت.. طابقٌ أرضيٌّ لا غير.. فالطوابق الثلاثة التي كانت تعلوه تَضرَّرتْ وأصبحت غير مؤهلةٍ للسكن.. ليكون باب البناية هو نفسه باب البيت..

قرعَ سعدٌ الباب المُوصدَ بهدوءٍ وانتظرَ للحظات..

لم يفتح أحد!

فاندفعت ْيارا لتقرعَهُ بقوَّة مُطوَّلاً.. عندئذٍ فُتِحَ الباب بسرعة وخرج في وجههم شابٌ عشرينيٌّ أشعثُ الشعر.. في يدهِ رشَّاش..

"خير؟ لمَ كلُّ هذا الدَبكِ على الباب؟ من أنتم؟".. سألَهُم بِنَزَقٍ واستياء..

"السلامُ عليكم.. لا تؤاخذنا أبو الشباب.. اعذرنا.. لم نقصد إزعاجك.. أنا سعد الدين العامِر مسؤول لجان التبادل الإنسانيِّ بين الشرقيَّة والغربيَّة.. نبحثُ عن طفلٍ صغيرٍ ذي ثلاثة أعوامٍ.. كان يسكن هُنا.. اسمه حامد"..

"نعم.. والمطلوب؟"..

"كنَّا نريدُ تَفقُّد البيت.. ربما هو مُختبئٌ هُنا أو هُناك.. هل تساعدنا لو تكرَّمْت؟".. سألتْ يارا بتحفُّظٍ وبصوتٍ لا يَكادُ يُسمَع.. على غير عادتها.. بعد أن بدأ حَسَّاسُ الخطرِ والخوفِ الأنثوي عندها يعمل..

"أجل.. دقيقة واحدة فقط لأخرجَهُ لكم من جيبي".. أجابَها الشاب بصَفاقةٍ وسُخرية..

"أرجو أن تأخُذَ الأمرَ على مَحمَلِ الجدّ.. فحياةُ الطفل في خطر.. ونحن جهةٌ رسميَّةٌ خيريَّة".. ردَّتْ يارا بحزمٍ لا شعورياً.. فأوجسَ منها الشاب واعتدلَ قليلاً قبل أن يَرُدَّ بامتعاض:

"حسناً انتظروا هُنا ريثما أستأذِنُ مساعد المُعلم صَطُّوف.. إلزموا مكانكم ولا تتحرَّكوا"..

التفتَتْ يارا بسرعة نحو كوثر وهمست في أذنها: "اسمعي يا كوثر.. إن كنتِ تحبِّينَ بديعة وتريدين مُساعدتها ومساعدتنا خُذي هذا الجوَّال وإن أصابنا أيُّ مكروه عليكِ أن تراجعي المكتب وصديقتي بَسمَة هُناك.. تعرفينها جيداً سلِّميها الجوَّال وأخبريها بكلِّ شيء.. أنتِ من أهالي الحيِّ ولن يكترثوا لأمرك.. أما نحنُ.. فالله أعلمُ بما يُبيِّتونَ لنا"..

تلقَّفَتْ كوثر الجوَّال من يدِ يارا بسرعة ودسَّتهُ بخفةٍ في عباءَتها وهزَّتْ رأسها باهتمام تأكيداً على تعاطفها ورغبتها في التعاون والمؤازرة..

شعرَ الجميعُ بارتباكٍ وقلقٍ لدقائق إلى أن استقبلهم وجهٌ جديدٌ من رجالِ الديب..

"أهلاً وسهلاً.. تفضَّلوا لمُقابلة المعلم"..

وأشارَ بفضولٍ إلى كوثر التي لا ينسجم مظهرها وهندامها مع هيئة يارا وسعد.. "هي معكم؟"..

"كلا.. الأخت تبرَّعَتْ مشكورةً لمُساعدتنا عندما سألناها عن أهل هذا البيت.. بإمكانك الانصراف الآن أختي إن لم يكن عند السيِّد مانع".. أجابتْه يارا..

لم يكلِّف السيِّد خاطرَه حتى بالردِّ واكتفى بإيماءةٍ من رأسِهِ لكوثر وأشارَ لها بيدِهِ للانصراف.. ولهُما بالدخول..

لكنَّها لم تبتعدْ كثيراً.. فقد ساوَرَها القلقُ على الجميع وأوَّلهم الصغير حامد.. أينَ عساهُ يكون إن لم يكن في البيت!

"يبدو أنَّه لم يتمكن من الوصول بعد.. سأتفقَّدُ الخَرابةَ التي خلفَ البِناء.. هو مُعتادٌ على اللعبِ فيها.. قد يكونُ هناك".. فكَّرتْ كوثر وتوجَّهَتْ على الفور إلى الخرابة الخلفيَّة.. بينما كان كلٌّ من يارا وسعد في غرفة مَعيشة بديعة في انتظارِ حضورِ الدِيب...

وصلَتْ إلى الخرابة الخلفيَّة.. ويا مَحاسِنِ الأقدار!

كما توقَعَتْ.. حامد هُنا يلهو مع أقرانِه من أطفال الحيِّ بين ركامِ الأنقاض.. لا بُدَّ أنَّهُ صادَفَهم فورَ وصولِهِ وساقَهُ الشوقُ لهم إلى مُشاركتهم اللعب فنسيَ نفسه ها هُنا.. هَروَلتْ نَحوَهُ وهي تُناديهِ "حمّودة.. هذا أنتَ يا حمّودة؟ كيف حالُك يا حبيبي؟"..

ما إن رآها حتى ركضَ صَوبَها وارتمى في حضنها هو الآخر.. كيف لا؟ وهيَ رفيقة أمِّهِ التي كانت تُمازِحُهُ وتلاعِبُه كلَّ يومٍ قبل أن تذهبَ به إلى حلب الغربيَّة..

"تعالَ يا حبيبي.. اشتقتُ إليك كتيراً أيُّها الأزعر.. هيا ولنذهب معاً إلى البيت.. ألا تريدُ أن تلعبَ مع مروة وعبير؟"..

هزَّ الصغيرُ رأسَه بالإيجاب فَرِحاً.. وعلى الفور اصطحبَتْهُ كوثر إلى بيتِها.. وحرصَتْ على أن تُبقيه فيه كَي لا يَتسبَّبَ له وضعه الجديد بأيِّ مشاكل من طرف رجال الديب ريثما تتضِحُ الأمور..

في هذه الأثناء كان المُلقَّبُ بالديب قد عادَ من جولته في ريف حلب الشماليِّ.. ليجدَ يارا وسعد في انتظاره.. وقُبَيلَ دخولِه للقائهما انفردَ به جابر.. أحدُ رجاله وساعدُه الأيمن.. واقترح عليه ما لم يكن في الحسبان..

"معلمي.. في الداخل رجلٌ وامرأةٌ في انتظارك.. علِمْنا أنَّهما يعملان مع منظمةٍ أجنبيَّةٍ دوليَّة.. يبحثانَ عن طفلِ صاحبةِ هذا البيت.. ويقولان أنَّه تاهَ منهما هُنا في الحيِّ أثناء مهمة تبادلٍ إنسانيٍّ.. تريد نصيحتي؟

أنت الآن تملك الدجاجة التي تبيضُ ذهباً.. بإمكاننا إن احتجزناهما أن نُقايض عليهما بعدَّة أمور.. ناهيكَ عن أنَّهُما مُوظَّفان دوليَّان.. وثمنُهما بالعُملة الصَعبة ليس بالقليل"..

صفنَ الديب قليلاً فيما سمعه من جابر وقال:

"نعم معك حق.. فلا أحدَ يعلمُ متى سنُضطَّرُ للرحيلِ من هُنا.. ولم نجمع بعدُ ما اعتقَدْنا أنَّنا سنفوزُ بهِ من أموال.. ربما تكون هذه صفقة العمر.. لكن ليس بمَقدوري احتجازهما هُنا.. السيطرة مُشتركة ومُتداخلة والوضعُ معقدٌ كما تعلم وقد يُجبرنا أحدُهم على التراجع وتسليمهما بلا مُقابل.. والوقت ليسَ مُناسباً للتناحُرِ مع باقي الفصائل.. أو فتح جبهاتٍ مجانيَّة لا تدِرُّ علينا نفعاً أو تقضي لنا مَصلحة..

أنت تعرفُ أبا الوليد وصرامَتَهُ على أطرافِ المعبر.. وعزَّام الحمصي ورأسه اليابس في الأحياء المُجاورة.. هما وأمثالهما مُتمَسِّكونَ بأسطوانةِ ما يُسمُّونَهُ الثورة ومَكاسب الثورة ونزاهةُ الثورة.. سيكونُ إقناعُهم صعباً.. ما لم يكن مُستحيلاً"..

"إذاً لننقلهما في جُنحِ الظلام إلى الريف بعيداً عن الأنظار في مكانٍ لا يعلمُ به أحدٌ غيرنا.. ونقايضُ عليهما الإدارة بشكلٍ مُستقلٍّ لا يتدخَّلُ فيه أحدٌ سِوانا.. ولينطَح ساعتها أبو الوليد وعزّام أثخن حائطٍ في بستان القصر"..

كانَ جابر يقصد مناطق قرى ريف حلب الشماليِّ.. حريتان ومارع وتل رفعت وصولاً إلى مدينة اعزاز غرباً والتي تعتبر نقطة عبورٍ حدوديَّةٍ حيثُ يسهلُ عليهما الهروب منها إلى تركية بعدَ ذلك..

"دعني أفكر قليلاً بهذه الطبخة ولا تُطلِعْ أحداً على الأمر يا جابر.. أنا وأنت فقط من سيرتِّب الصفقة.. أنا وأنت..

نضربُ ضربَتَنا ونحصلُ على ما فيه النصيب.. قرشين حلوين لنعتزِلَ بعدها كارَ القِتال ونرتاح"..

توجَّهَ الاثنان بعد ذلك إلى غرفة المعيشة ليتعرَّفَ الديبُ على الغنيمَتين...

في هذه الأثناء كان سعد ينظرُ بطرفِ عينه إلى يارا ويُدندِنُ بصوتٍ خافتٍ لا يسمعه إلا هيَ وقد جلست بمُحاذاتِه.. كان يُدندِن بكلماتِ أغنيةٍ قديمةٍ تحبُّها كثيراً..

"يا معلمتي.. يا معلمتي.. إيجا الديب.. إيجا الديب.. إيجا تا ياكلنا.. إيجا تا ياكلنا.. نعمل شو؟"..

نظرتْ يارا إليهِ مرَّةً أخرى نظرةَ تَوعُّدٍ قائِلةً.. "عليك أن تُغنِّيها بصوتٍ أعلى كَي يسمعَكَ الديب ورجالُ الديب في الغرفة المُجاورة فربما يحتفظونَ بحنجرتِك وحنجرةِ مُعلمتك.. ويُخفون صوتَك العذب هذا للأبد"..

"مِنْ كلِّ قلبك هذا الكلام؟".. سألَ سعد وهوَ يحاولُ استفزازها مَازِحاً..

هو اختارَ أن يتعاطى مع الأمر كمزحةٍ لأنَّهُ إن فكَّرَ بوضعِهما بشكلٍ جديٍّ سيُصابُ بالإحباط والخوف حتماً.. فالبدايات لا تُبشِّرُ بالخير وقد مرَّ على انتظارهما بمفردهما في الغرفة أكثرُ من ساعة إلى أن وصلَ أخيراً صَانعُ القرارِ المِغْوار....

"أهلاً وسهلاً.. يبدو أنَّ في ضيافتنا ناس مُهمِّين اليوم"..

دخلَ الديبُ إلى الغرفة فانتفضَ كلٌّ منهما واقفاً إلى أن جلس هو على الأريكة المُقابلة وأسنَد ذراع رشَّاشِه على طَرفها ثم أذِنَ لهُما بالجلوس في إشارةٍ بيده..

"أهلاً بالمعلم.. كنا بانتظار تشريفكم أنا وزميلتي في العمل.. ولدينا طلبٌ لو تكرَّمْتَ ونتمنى أن تساعدنا فيه".. بادَرَ سعد بالحديث..

"نعم أخبَرَني الشباب أنَّكما تبحثان عن طفلٍ هُنا.. لكن لم نجده بعد.. وسننتظر لحين العثور عليه.. أرسلتُ بعض الشباب للبحث عنه في الجوار".. كان الديب يدَّعي التعاونَ معهما ويُضمِرُ عكسَ ذلك لهما..

"طيِّب.. هل تسمح لنا بالتجوُّلِ في محيط المكان قريباً من هُنا لنساعِد في البحث عنه؟ هذا كلُّ ما نُريده".. سألَ سعد..

"لا.. ستبقيان في ضيافتنا في الحفظ والصون ريثما نعثر على الصغير.. ثم إنَّكما تجاوزتما القانون هُنا.. دخلتما وتجوَّلتُما بدون إذنٍ مُسبَقٍ وهذه مخالفةٌ يُعاقَبُ عليها.. ودخول الحمَّام يا أستاذي كما تعلم ليس كخروجِه"..

"استميحُكَ عُذراً.. لم أفهم قصدك.. حسناً لم نَعُدْ نريدُ الصغير.. سننصرفُ ونأسفُ على تجاوُزِنا قانونَكُم.. أعترفُ أن هذا جهلٌ منَّا وأعِدُك أنه لن يتكرَّر".. قال سعد كلامَه وهو يهمُّ بالنهوض ومعه يارا بنيَّة المُغادرة.. بعد أن توَجَّسا من نوايا مُضيفِهِما..

على غيرِ عادتِها لم تتدَخَّل يارا بينهما هذه المرَّة لأنَّها أدركَتْ تماماً أنَّ الديب وبعد أن تعرَّفتْ إليه وإلى رجاله الآن لم ولن يعثر لهما على حامد..

المَكتوب واضحٌ من عنوانِه.. وهي لم تتصوَّر أن يكونَ الوضع هكذا وبهذا التَمايزِ الواسعِ بين منطقةٍ وأخرى.. فهؤلاءِ الغرباء لا يُشبهونَ أبا الوليدِ وجماعتَهُ على الإطلاق.. لا جَدوى من استجدائِهم.. أصبحَ الأهمُّ الآن إيجاد سبيلٍ للتملُّصِ من الأمرِ بِرمَّتِه والتحرُّر من قبضتهم

والخروجِ من ورطتِهم هذه بأيِّ شكلٍ.. والانسحاب بسلام للعودة إلى المَعبَرِ..

كان أبو الوليد مُحقَّاً في تحذيراتِه.. لكنَّها أيقَنَتْ ذلك مُتأخرةً..

"اجلسا.. لم آذن لكُما بالانصراف بعد.. لا تُثيرا غضبي فلن يعجبكما ذلك".. صرخَ فيهما الديب مُمسِكاً برشَّاشِه..

"حسناً حسناً كما تُريد.. لم نقصد إزعاجك ولكن تأخَّرنا عن فريق عملنا وعلينا الالتحاق بهم.. هذا كلُّ ما في الأمر".. قال سعد بنبرةِ تَوَدُّدٍ واسترضاءٍ للديب على سبيل المُسايَرة والمُجاراة..

"جابر.. استدعِ الرجال وخذوا ضيفينا إلى مكانِ إقامتِهما الجديد في دارِ الضيافة".. نادى الديب رجالَه وأوعَزَ لهم وبشكلٍ غير مُباشرٍ باحتجازِ يارا وسعد..

لم تُحرِّك يارا ساكِناً.. ولم تُقاوم.. ربَّما تَمَلَّكها اليأسُ والعجزُ والندمُ والشعورُ بالذنبِ بعد أن أوقعَتْ نفسَها وسعد في هذا المأزق..

فيما حاولَ سعد دفعَ أحدِ الرجال وإبعادَه عنه وفتْحَ طريقٍ لهما للمُغادرة دونَ جدوى.. فباغَته الرجل بضربةٍ على كتفه من أخمصِ رشاشه.. أجلسَتْهُ ثانية وهو يترنَّحُ من الألمِ..

"مَهلاً مَهلاً.. لا تؤذِهِ أرجوك.. انتظر سنذهبُ معكَ إلى حيث تُريد"..

تدخَّلتْ يارا وهي تُمسِكُ ذراعَ سعد وتحاولُ الاطمئنانَ على إصابته..

ما هيَ إلا دقائق حتى اقتادَهُما جابر ومَنْ مَعَهُ من الرجال عبر زقاقِ بيتِ بديعة إلى بيتٍ مُجاورٍ بدا أنَّه مُخصَّصٌ "لاستضافة" أو بالأحرى لـ "احتجاز" الرهائن..

كانت كوثَرفي هذه الأثناء تَحومُ في الجوار بِقلق.. لم تستطع البقاءَ في بيتها مُطوَّلاً.. تركَتْ حامد في عهدةِ بناتِها.. وباتَتْ تتفقَّدُ شارعَ بيتِ بديعة بينَ دقيقةٍ وأخرى لتَطمَئِنَ إلى ما سَيؤولُ إليه مصيرُ يارا

وسعد.. أو على الأقل لتعرفَ وجهتَهُما التالية.. وما إن خرجا مُحاطَين بالرجال حتى أدرَكَتْ أن الأمور ازدادَتْ تعقيداً.. لكنَّها أصَرَّتْ وبأيِّ شكلٍ أن تُطمْئِنَ يارا على حامد.. فمرَّت بمُحاذاةِ الجَمْع والجوَّالُ على أذنِها مُتظاهرةً بإجراءِ اتصالٍ هاتفيٍّ.. وتعمَّدَتْ إيصال صوتِها ليارا قائلةً:

"أجل أجل يا أمَّ حسين.. اطمئنِّي لقد وَجَدْتُ كيسَ الأغراضِ الذي تركْتِهِ هُنا.. كان في الجوار عندَ جماعة أقربائي.. أجل هو عنديِّ الآن في البيت وسأعطيه لبَسمَة صديقة ابنتِكِ في أقرب فُرصة"..

كانتْ هذهِ أروعَ مُكالمةٍ هاتفيَّةٍ خُلَّبيَّة تسمَعُها يارا على الإطلاق..

وصلَتْها الرسالة وابتسمَتْ في سِرِّها بعد أن فهمِتْ الشيفرة جيداً فاستحالَ بعضُ قلقِها إلى طمأنينةٍ مُؤقتة..

هي على الأقل الآن مُتأكدة من سلامةِ حامد ومَصيره.. بل وأصبحت تأتَمِنُ كوثر عليه وتثقُ بقدرتِها على تدبيرِ الأمور وإيصالِهِ بسلامٍ إلى بَسمَة.. فمَن يتصرَّفُ هكذا بدهاءٍ وحِنكة.. جديرٌ بنيلِ الثِقة وتحَمُّلِ المَسؤولية..

بُستانُ القَصر.. رافقتْكُمُ السَلامَة

بيتٌ صغيرٌ بغُرَفٍ ثلاث.. هوَ مكانُ إقامَتِهما المُؤقتة الجَديد..

اقتادَهُما جابر ورجالُه إليه ثم أرسَلَ في طلب سيِّدة خَمسينيَّة تُدعى أمّ عَوَض لتقومَ على خدمةِ يارا تَحديداً كونها امرأة..

"تعالي يا أمَّ عَوَض.. هؤلاء ضيوفنا اليوم.. الأخت بنت الأكابِر أريدك أن تخدميها وتشوفي طلبَاتها.. أنتِ وهيَ في الغرفة الكبيرة.. وسعد الدين أفندي في الغرفة المُجاورة.. دُلِّيهما على الحمَّام والمطبخ والذي منه.. وابقَي معَهُما.. وسأضَعُ اثنين من الرِجال على البابِ للحراسةِ ولاحتياجاتِكِ"..

"أمرك معلم جابر".. أجابَتْ السيِّدة بانكسار.. ودخلَتْ المطبخ لتضَعَ أغراضها وتبدأ بتحضيرِ شيءٍ للغداء..

بعدَ مُغادَرةِ جَابر.. جلسَتْ يارا إلى جِوارِ سعد الذي كان ما يزال يَتلوَّى من ضربةِ كتفِهِ لتُواسيه..

"أنا آسفة يا سعد.. كلُّ هذا بِسَببي.. لم أكُنْ أتوقَّعُ ما حَدْث.. كلّ هذا لأنَّنا تجاوَزْنا خطَّ تحرُّكاتنا بشارعٍ واحدٍ فقط؟

شارعٌ واحدٌ أودى بنا إلى عالمٍ آخر.. كم هي لعينةٌ وقذرة هذه الحرب!"..

نظرَ إليها سعد برضاً قائلاً "يكفيني خوفُك عليَّ وحرصُك على سلامتي يارا.. لا تأسَفي.. أنا اخترتُ طَوعاً أن أبقى مَعَكِ.. نسألُ الله فقط ألا يكونَ القادمُ أسوَأ!"..

"آملُ ذلك.. هل تتوقَّعُ أن يُطلقوا سراحَنا اليومَ أو غداً؟

نَسيتُ أن أخبِرَكَ بأنَّ كوثَرَ عثَرَتْ على حامد وهو في بيتِها الآن.. وستوصِله إلى بَسمَة في أقرب فُرصَة"..

توسَّعَتْ حدَقَتا سعد وانفرجَتْ أساريرُهُ.. "كيف عرفتِ؟".. سألَها باستغراب..

"كوثَر أخبرَتني بشكلٍ مُشفَّرٍ عندما كنَّا نَهِمُّ بمغادرةِ بيتِ بديعة وحولنا الرجال.. ليسَتْ بِهيِّنة تلك المَاكرة.. كانت هناك وتظاهَرَتْ بإجرائها اتصال هاتفي.. فمَرَّتْ بقُربي وهيَ تتكلَّمُ على الجوَّال بأنَّها وجدَتْ كيسَ الأغراض وستوصِله لبَسمَة.. أنتَ كنتَ مُنشَغِلاً بوجَعِ كتفِكَ ولم تنتَبِه لها"...

"عَظيم!!! بمَقدُورِنا الآنَ العَودَة إلى حلب الغربيَّة مُطمئِّنين.....

طبعاً.. إن تمَكَّنَّا من ذلك"... استدرك سعد..

"لستُ مُطمَئِنَّة لِمَن يُسمَّى الديب ولا لأتباعِهِ.. ولا أعلمُ كيفَ سنتمَلَّصُ مِنهم ونُغادِر!".. أجابَت يارا بنبرة إحباط..

قاطَعَتْ خلوَتَهُما أمُّ عَوَض حامِلةً صينيَّة الألمنيوم المدورة الكبيرة وعليها صَحنُ بيضٍ مقليٍّ ورغيفَي خبزٍ ومُقبِّلاتٌ من أوراقِ النَعْنَعِ والطَماطم المَفرومَة مع القليل من مُخلَّلِ الخِيار..

"أهلاً وسهلاً بآنسة يارا الغَالية.. لم أستطعْ الترحيبَ بِكِ كما يجب أمامَ المُعلم جابر.. مُؤكَّدٌ أنَّك لم تتذكريني.. ولكنِّي لن أنسى مساعدَتَكِ لنا بتوزيعِ المَعونات في أيام القحط.. ولولا الدواء الذي أحضرتيه لجارتي صبحيَّة الشهر الماضي لكنتُ اليومَ أقرأ الفاتحة على روحها والله أعلَم..

إيييه.. ما علينا.. يا عيب الشُوم منكما.. لم أجد إلا كم بيضة لأقليها مع القليل من الخضار.. الوقت مُتأخرٌ ولم يُحضر ليَ معلم جابر شيئاً لإعداد الغداء اليوم.. غداً إن شاء الله سأطهو لكما ما تَشتَهيان".. قالتْ وهيَ تَبتَسِمُ مُرحِّبةً بهما..

"غداً؟ وهل سنبقى للغد يا خالة؟ أرجوكِ قولي غيرَ ذلك.. نحن مجرد موظفي جمعية خيريَّة كما تَعلمين ولا نمَثِّلُ إلا إنسانيَّتنا.. لماذا لا يطلقونَ سراحَنا".. قالت يارا باستهجان..

أجابت أمُّ عَوَضٍ وهي تَضَعُ صينيَّةَ الطعامِ على الطاولة أمامَهم:

"آه يا بنتي.. لا أعرفُ ماذا سأقولُ لكِ.. خلِّيها بالقلب تجرَح.. صار لنا على هذه الحال سنة ونصف مُحاصَرين.. من جِهةِ جيش النظام المجرم في الغربيَّة على معبَرِ المَوت.. ومن جِهةٍ مَأسوريينَ من خليطٍ من المُسلَّحين هُنا في الشرقيَّة.. مَقهورينَ بين فكَّي كمَّاشةٍ.. لا طايلين عنب الشام ولا بَلَح اليَمَن.. وكلّ فترةٍ تتغيَّرُ القِيادَاتُ والوجوهُ والأوامرُ والنواهي.. صحيح أن الكثير منهم شباب مثل الورد أصحاب نخوةٍ وكرامة.. اضطروا إلى حمل السلاح للذود عن الأبرياء بعد أن تمادى النظام معنا في إجرامه.. لكن مِنهم أيضاً من ركب الموجة وبات يعمَلُ لمصلَحَتِه.. وابتُلينا في هذا الشارع بالذات بعصابة الديب.. خليها على الله وحده.. ننتظرُ منه الفرَجَ"..

"رائحةُ البَيضِ المَقليِّ شهيَّةٌ.. شكراً لكِ يا خالة.. هيا شاركينا الطَعامَ ولنتحدَّثْ أكثر عن الوَضع".. دَعَتْها يارا للجلوس وباشرَتْ هيَ وسعد بالأكل بِنَهَمٍ..

يبدو أنَّ القلقَ والترقُّبَ قد حرَّضا المَعدة الخاويةَ أصلاً.. فأحسَّا بالجوعِ الشديدِ فجأةً..

"هَنَا وعَوافي.. هَنَا وعَوافي.. تَبدُوان جائِعَين.. يا لَيتَهُم أخبروني باكراً.. كنتُ أعْدَدتُّ لكُما شيئاً أفضلَ".. قالتْ أمُّ عَوَضٍ بِلُطفٍ وهي تُراقِبُهما..

"على العَكس.. إنَّهُ لذيذٌ وشهيٌّ جداً يا خَالَة.. سلِمَتْ يَدَاكِ.. أعتقدُ أنَّهُ أطيبُ بَيضٍ مَقليٍّ تناوَلْتُهُ في حَياتي".. قالَ سعد وفمُه مَحشوٌّ بالنَعْنَعِ والطماطم وكأنه لمْ يتذوقهما في حياته قطّ..

"يا حسرتي على أبناءِ الحيِّ هُنا.. لا يَأكلونَ إلا المَخلوطة بالأرز أو البرغل.. وبعض الحشائش.. مِنهُم من بدأ يتحايَلُ على أوراقِ الشجر ليُحيلها إلى أيِّ شيءٍ يُمضَغ.. والخيرات والعزّ كلّه للمسلَّحين وزعَامَاتِهم..

لم يذُقْ أحدٌ من أطفالنا بَيضةً منذُ مدَّة.. هذا الصحن بالنسبة لهم حلم"..

استرسلت أمُّ عَوَضٍ شاردةً بحُزنٍ دونَ أن تَنْتَبِه إلى أنَّها أصابَتْهُما بنوبةِ تأنيبِ ضميرٍ جعلتهما يغصّانِ لِمَنْ حُرِمَ مثلَ هذا الطعام من الأطفال..

"لِسَاني هذا يلزمه القطع.. لا تؤاخذاني.. لم أقصد أبداً إفسادَ غدائكما والتنغيصَ على شهيَّتِكُما.. لكنَّ استحسانَكُما لمَذاقِ الطعام جعلني لا شعورياً استحضرُ صورَ أطفالِنا المَحرومين من أبسطِ الحقوقِ..

أرجوكما سامحاني يا أولادي.. صحة وألف عافية على قلبيكما.. ومطرَح ما يسري يمري".. استدركَتْ أمُّ عَوَضٍ بعد أن لاحظَتْ أنَّهُما توقفا عن الأكل وهما يُنصِتان إلى كلامها بتعاطفٍ وتأثُّر..

"حسبُنا الله ونعم الوكيل.. طيِّب ما الذي يجبرك على العمل معهم يا خالة؟" تساءَلتْ يارا..

"اتركيها على الله يا بنتي.. لولا عملي هنا وخدمتي لهم في الطبخ والإطعام.. لما استطعت تأمين لقمة العيش لي ولحفيدي حسن ابن ابني عَوَض رحِمَهُ اللهُ هوَ وكلَّ من قضَوا معه في تلك الليلة المَشؤُومة التي أمطرَتْنا بها طائراتُ الأسد بالبراميل..

كان حَسُّونة يبيتُ عندي ليلَتَها وربنا نجَّاهُ من المَوت المُحقَّقِ بعد أن سَقطَ برميل الموت على دار عَوَض وأخذَهُ هوَ وكلَّ مَنْ معَه.. رحِمَهُم الله.. أصبحتُ بعدها أطبخُ لهم هُنا فيعطُوني ما فيه النصيب.. أحياناً نقود.. وأحياناً يسمَحون أن أسكبَ لي ولحفيدي حِصَصاً من فائضِ

طعامِهم.. الحمدُ لله.. الحال مَستورة.. لكنَّ قلبي يعتصِرُ ألماً على غيرنا من أهل الحيِّ.. هم لا يَجدون ما يسدُّ رمقَهُم.. والشكوى لله"..

"نسألُ الله الفرَجَ للجميع.. هكذا هي الحرب.. تأكلُ الأخضرَ واليابسَ.. لا رابحَ فيها.. وإنَّما طرَفٌ أقلُّ خسارةٍ من الآخر".. أجابَتْ يارا في محاولة لمُواساة السيِّدة ثم سألَتْها:

"ما دمتِ تعرفينني يا خالة وتعرفين كم تهمّني مصلحة المُحتاجين هُنا وكم عملتُ لأجلهم.. أرجو أن تَصدقِينا القُول؟ ماذا يَنوي الديب أن يفعلَ بِنا؟ هل سيُطلِقُ سراحَنا؟ في العادة ما مَصيرُ مَنْ هُم في مِثل وضعِنا الآن؟"..

"لا أعلمُ يا بنتي.. لأوَّلِ مرَّةٍ يحتَجزونَ أشخاصاً لا هُم ضيوف ولا هم أسرى أو مُدانُون بجرمٍ..

في العادةِ أقومُ بخدمةِ ضيوفِهم وتحضير الطعامِ لهم.. أو يأتون بأسرى ورهائِنَ مُكبَّلين يبقون هُنا قليلاً قبلَ ترحيلِهم إلى جِهةٍ مَجهولةٍ لا يُعلِمونَ أحداً بِها.. وفي بعضِ الأحيانِ يَتِمُّ تَصفِيَةُ الرَهينةِ.. بَعُدَ الشرُّ عنكُما.. لكن.. اللهُ أعلمُ بِنيَّتِهِم..

ليتني أستطيعُ مُساعَدتكما على الهربِ.. لكن إلى أين؟ المكان من باب الدار لآخر الشارع يعجُّ برجالِهِم.. اتركيها لربِّكِ كما قلتُ لكِ"..

"حمَانا الله.. أحذِّرُكَ من الآن يا سعد.. لا تبدِ أيَّ مقاومة لهم أو استفزاز أو تمرُّد على أوامرهم.. لا مكانَ للعَنتريَّات.. ليسَ أسهل من أن يُردُوكَ برصاصةٍ في جبينِك.. نحمدُ الله أنَّها انقضَتْ قبلَ قليلٍ بضربةٍ من أخمصِ الرشَّاش"..

"حَسَناً.. لكنِّي لستُ مُطمَئِّناً لِمَنْ يُسَمَّى جابر هذا.. أشعرُ أنَّهُ يُدبِّرُ أمراً سَيئاً.. العلمُ عندَ الله"..

كانَ جابر في هذه الأثناء يجهِّزُ سيَّارةَ البيك أب المُمَوَّهة ويجري اتصالاتِه مع الريف الشماليِّ ليَطمَئِنَّ عن وضعِ الطريق ليلاً وعن أسماءِ مَن هُم على الحواجزِ..

اتفقَ والديب على تَرحيلِ الرَهينتين إلى أطراف قرية صغيرة على بعد ٣٥ كم شمال حَلب وسينطلِقُ بهما ليلاً تَجنُّباً لِلفتِ الأنظار..

يَنويان احتجازَهُما في مكانٍ سريٍّ مُتطَرِّفٍ هُناك والمُقايضةَ عليهما لتحقيقِ بعضِ المَكاسِبِ الماديَّةِ.. دونَ مُشارَكَةِ أحدٍ..

"هل كلّ شيءٍ على ما يُرام؟ تأكَّدْ من الطريق يا جابر.. إسألْ الشباب جيداً واستفسر.. لا نريدُ مشاكلَ مثل المرّةِ المَاضية مع جماعة عبدو الوَرْد"..

"لا تَقلقْ مُعلمي.. سأنقلهم إلى بيتٍ في مكانٍ لا يَعرِفُه الدبَّانُ الأزرق.. لا تُوصِ حريص.. تكلَّمْتُ قبلَ قليلٍ مع صديقٍ لي هو أحد رجال الورد سأعطيهِ قرشَين ليسمَحَ لنا بالمُرورِ دونَ تفتيشٍ.. ولكن منْ سنختارُ لمُرافقتي كسائقٍ للسيَّارة مِنْ بين الشباب؟"..

"هزّاع الأسَمر صدَّعَ رأسي وهوَ يطلبُ مني أن أوكِلَ لهُ مهمة القيادة..

سألتُ الشبابَ مَنْ مِنهم مُتفرِّغٌ وقادرٌ على القِيادة ليلاً.. الكلُّ جاهزٌ.. لكنَّ هزَّاع تَوسَّلَ إليَّ أنْ اختارَه إذا كانَتْ المَهمةُ في الشمال.. يريدُ أن يزورُ أهلَ قريَتِهِ هناك كما قال"..

"حسناً لا فَرقَ عِندي يا مُعلِّمي.. المُهمُّ أن يكونَ شاباً صاحياً وماهراً في القِيادة.. طريقُنا نصفه تُرابيٌّ وَعِرٌ ومُتعِبٌ.. وطبعاً أنتَ تعرفُ أنَّنا يجبُ أن نتخلَّصَ مِنه بعد انتهاءِ المهمة.. لا يجبُ أن يعلمَ بمكان احتجاز الرهائن أيُّ طرفٍ ثالثٍ.. أنا أحرسُهم هناك.. وأنتَ تفاوضُ وتقبضُ هُنا.. فقط لا غير..

رحِمَكَ اللهُ يا هزّاع كنتَ شابَّاً شُجاعاً".. ضَحِكَ الاثنان ضِحكةً صَفراءَ بكلِّ نَذَالةٍ وخِسَّة.. واتفقا على تَسييرِ الرحلةِ ليلاً.. والتخلُّصِ من الشابِّ الذي أوكَلا إليه مُرافقة جابر لقيادة السيَّارة بعدَ الوصولِ إلى مكانِ الاحتجاز..

أعدَّ جابر العدَّةَ للانطلاق.. وطلبَ من هزّاع أن يكونَ جَاهزاً ويوافيه بعد صلاةِ العِشاء.. وبالفعل جهَّزَ الشابُّ نفسَه وكانَ مُستعدَّاً ومُنتظِراً أمامَ دار جابر بعد الصلاة.. إلى أن حانَتْ ساعةُ الصِفْر..

"ما شاءَ الله.. (بيغ بين) يا أسمَر.. مواعِيدُك نِظاميَّة"

قالَ جابر مُمَازحاً هزّاع قُبيل تَحَرُّكِهِما..

"أنا عندَ الطلَب مُعلمي.. مَعَك عَ المُوت".. أجابَ الشابُّ بكلِّ حماسة..

"مَعيَ عَ المُوت؟ وهذا ما سَيكونُ.. ليتَك تمنَّيتَ شيئاً آخرَ يا بُنَيَّ"..

فكَّرَ جابر في سِرِّهِ ثم استطردَ بصوتٍ عالٍ.. "يا الله يا شباب هاتوا الضيوف من عند أمِّ عَوَض ولا تنسَوا تكبيلَهُما بإحكام"..

تحرَّكَ بضعَةُ رجالٍ لتنفيذِ ما أوعَزَ بهِ جابر.. في حين استقلَّ هزّاع السيَّارة خلفَ المِقوَد وانتظرَ باستعداد..

"مُعلِّمي.. اسمحْ لي أن أتلثَّمَ بالكوفيَّة من باب الاحتياط ففي الطريق قد نُصادِفُ بعضَ شبابِ الحواجز مِمَّن كانوا معيَ في كتيبَتي السَابقة ولا أريدُ أن يتعرَّفوا عليَّ"... استأذن هزّاع جابر الذي أومَى له برأسِهِ أنْ لا مشكلةَ في ذلك..

"لا بأس افعلْ ما يحلو لكَ.. المُهم أن تكونَ مُرتاحاً بالقيادة"..

ما هيَ إلاَّ ربع ساعةٍ حتى وصلَتْ يارا ومعها سعد وقد اقتادتهما مجموعةٌ من الرجال مُكبَّلَي الأيدي إلى حيثُ السيَّارة..

كانَ مشهدُ الرجالِ حولَ السيَّارةِ لا يُبشِّرُ بالخَير.. لا بُدَّ أنَّهم يحِيكُونَ أمراً سيِّئاً.. شعرَتْ يارا بالقلقِ لكنَّها لم تنطقْ بحرف.. بينما استاءَ سعد من طريقة اقتيادِهم الفَظَّة..

"لماذا كلُّ هذه الإجراءات وكأنَّنا وحوش أو قاطِعَي طُرق.. ماذا فعلنا لكم حتى تعاملوننا كمُدانِين؟ وإلى أينَ تأخذوننا".. قال سعد وقد علا صوتُه لا شعوريَّاً في وجهِ جابر باستنكار..

"هذهِ آخرُ مرَّةٍ أسمعُ فيها صوتَك عالياً هكذا.. أحذِّرُكَ.. إن سمِعْتُ صوتَك ثانيةً ستخرسُ إلى الأبد.. هيا اصعَدَا إلى السيَّارةِ وبلا وجعة راس".. صرخَ جابر مُهدِّداً.. وأشارَ لرجالِهِ أن يجبروهما على الصعود مكبَّلين إلى صندوقِ السيَّارةِ الخَلفيِّ..

انتَهَتْ بعدَ ذلكَ إجراءَات التحميل وأصبَحَت الشحنَةُ جَاهزةً للمغادرة..

وعساها.. تُرافقُهُمُ السَلامةُ..

صندوقُ الاعترافات

تحرَّكَتْ سيَّارةُ البيك أب وعلى مَتنِها جابر وسائِقُهُ المُلثَّم.. وفي صندوقها الخلفي يقبَعُ سعد مع يارا مُكبَّلَي الأطراف..

خواطرُ سُوءٍ بألفِ فكرةٍ وفكرة جَالَتْ في ذهنِ كلٍّ مِنهُما..

لم يَستبعِدا أنَّهُما في طريقهما إلى النهاية.. فكرةُ المَوتِ كانت الأقوى والأكثرَ إلحَاحَاً على مُخيِّلَتِهِمَا..

"هل سَيُطلقونَ الرَصاصَ علينا مِنْ مَسافةٍ قريبةٍ ثم يَدفِنُونَنا في حُفرة؟"...

"من سَيمُوتُ أوَّلاً؟ هل سَيعذبوننا؟ لكن لمَ؟ ما هي تُهمَتنا.. فقط أنَّنا جِئنا من حلبَ الغربيَّة؟"..

"أيُعقَلُ أن تكونَ هذه هي النهاية؟ هكذا ببساطة؟ بدونِ خوضِ ملاحمَ بطوليَّة.. نموتُ هكذا مُكبّلَينِ وبلا مُقاومة"..

تقاذفتهم الأفكارُ السَوداءُ...

نظرَ سعد إلى يارا قائلاً.. "هل تفكرينَ بما أفكرُ فيه؟"..

"أعتقدُ ذلك.. هل سيقتلونَنا يا سعد؟ إلى أين يذهبون بِنا؟ هل سيقتلوننا في البريَّة أو في الصحراء ويرمونَنا؟"..

"لا لا.. لن يرمونا هكذا.. سيحرقونَ جثَثَنا أولاً".. لا يستطيعُ سعد تحتَ أيِّ ظرفٍ أن يتخلَّى عن روحِ الدعابة حتى في المَواقف السوداء..

"إوفٍّ منك أيُّها الغليظ.. قلْ شيئاً مُطمئِناً.. أرجوكَ سعد.. قل شيئاً إيجابياً"..

"تريدينَ شيئاً إيجابياً؟ حَسناً"...

"أنا أحبُّكِ يارا..

لطالَما أحببتُكِ.. بل لم أتوقف عن حبِّكِ منذ أن وقعتْ عَينايَ عليكِ.. كم تمنيتُ أن أبوحَ لكِ بهذا السرّ الذي لا بُدَّ وأنَّكِ تعرفِينَهُ وتشعرينَ بهِ.. لكنِّي كنتُ أنهزمُ أمامَ صرامَتك وفجاجتك عندما يتعلقُ الأمرُ بمشَاعري..

لماذا تُكبِّلينَ قلبَك لهذا الحدّ؟ أطلقي العَنان له ولتستقبلْ رادارتُكِ الأنثوية بثَّ إشارةِ مشاعري الصَادقة..

تعلمين؟ أصبحتْ حروف اسمِكِ أولى حُروف أبجديَّتي التي أعدتُ ترتيبها من أجلك.. لتليقَ بصدارتِكِ..

لا أرى في هذه الدنيا إلا يارا وبضعَ ملايينٍ من الأشياء التي لا معنى لها بدون يارا.. تَفقِدُ شغَفَها بدونِ يارا.. ولا أبتغي إلا الحَلال.. كنتُ أحلمُ أن توافقي على الزواجِ بي..

والآن.. وقد نكونُ على مَشارفِ المَوت.. اعترفُ لكِ بما لم أجرُؤ مُسبقاً على البوحِ بهِ.. مع أنَّ كلَّ جوارحي كانَت تنطِقُ بهِ كلَّ لحظة.. لا أريدُ أن أموتَ قبلَ أن تَعرفي كم أحبُّكِ.. لكن إن كان مَوتي ينقِذُكِ فأهلاً بهِ.. هل تدركينَ صعوبة الأمر عليَّ وأنا أراكِ في خطَر؟"..

لم تتفاجأ يارا باعترافاتِ سعد وبَوحِهِ.. لكنها تفاجأت بالتوقيت..

لم تتوقع الآن وفي هذه اللحظات الحالِكة بالذات أن يكون وقتاً مناسباً لعرضٍ عاطفيٍّ رومنسي..

"لا بُدَّ وأنَّكَ تهذي هذيان المُودِّعين يا سعد.. حُبِّ إيه اللي إنتا جاي تقول عليه الآن؟ ونحن مُساقونَ كالنعاج إلى مذبَحِها"..

"وما العيبُ في زواج النعاج؟".. أجابَها مُمازحاً وهو يحاوِلُ إضحاكها وإخراجها من قالبِ التوتُّرِ والرعب الذي يبدو أنَّها بدأت تتصلَّب داخله دونَ أن تشعرَ..

ضَحِكِتْ من قلبها باستحياء وكان هذا هو المطلوب وكافٍ بالنسبة لسعد الذي ابتسمَ بارتياب.. فهو لا يعلمُ متى ستتوقفُ السيَّارةُ ليتَرجَّلا منها ويحدث ما قد يحدث..

"ما رأيكِ أن تقولي أنتِ الآن شيئاً إيجابياً.. هيَّا وكلِّي آذانٌ صاغية".. تابعَ سعد..

على حافَّةِ صندوقِ السيَّارة أسنَدَتْ للخلفِ رأسَهَا المُتعَبَ الذي يعجُّ بالأفكار.. وصَمتَتْ لثوانٍ قبل أن تتكلَّم ونَظَرُها لأعلى...

"أتعلمُ يا سَعد.. قبل استضافَتي حمُّودة.. كنتُ كالمرأة الآليَة بينَ أعباءِ البيتِ والعمَلِ.. لم تكن الأمومَةُ أو حتَّى الأنوثة تعنيني مُطلقاً.. بل كنتُ أشعُرُ بالأسفِ على الأمَّهات في هذه الظروف الصَعبة..

لكن عندما دخلَ حامِد حياتي وأربَكَ نظامَها القديم وعبثَ بإعداداتِه فغيَّرها.. أشرَقَتْ حياةٌ جديدةٌ مختلفةٌ تماماً أماميَ.. بنكهةٍ جديدةٍ ألذّ..

هناك تجاربُ لا تتوقَّعُ حجمَ تأثيرها عليكَ إلى أن تخوضَها.. كنتُ عندما أضمُّ حامد ليلاً لننام استرجِعُ طفولتي في حضنِ أمِّي.. ويغلِّفُني شعورٌ غريبٌ بالحنينِ لها.. والحنانِ له..

ربَّما هي لعبة هِرمونات.. لا أدري.. لكن ما أنا متأكدةٌ منه.. أن يارا قبل حمودة ليست هي يارا التي بعدَه.. وإن كتبَ اللهُ ليَ عمراً سأشطبُ فرماناتٍ كثيرةً أصدرتُها بحقِّ نفسي في دستورِ حياتي..

كم كنتُ مُغفَّلة!"...

"وأنا؟ أليسَ لي مكانٌ ولو متراً بمترٍ.. ولو حتى بلاطة ببلاطة.. في حياتك أبداً يا يارا؟ أرجوكِ قولي شيئاً عنِّي ولو لأوَّلِ وآخرِ مرَّةٍ قبلَ أن أموت"..

"يا لغلاظَتك يا سَعد.. لن نموتَ إن شاءَ الله.. ولهذا لن أقولَ لكَ شيئاً قد أندمُ عليهِ لاحقاً"...

"وقد نندَمُ على الصَمتِ أيضاً.. أتَرَين؟ ما زلتِ مُتمَسِّكةً بفرماناتِك المُهترِئة.. حرِّري حياتَكِ يارا.. الحياةُ أبسَطُ من أن نعقِّدَها بلا داعٍ.. قولي ما تشعُرينَ بهِ بلا تَكلُّفٍ.. إن لم تتحدَّثي الآن فمتى؟

قولي أحبُّكَ أيُّها الأحمَق.. قوليها ولو لمرَّة"..

"لنْ أقولَ".. وسَكَتَتْ للحظاتٍ ثم ابتسمَتْ وأردَفَتْ "أحبُّكَ".. فبدا أنَّها تتحايل على تزامُن نطق الكلمات لتقول "أحبك" وتضمرها في "لن أقول أحبُّكَ"..

كانَ الفاصلُ الزمنيُّ الذي تركَتْهُ عَمداً بحِرَفيَّةٍ ومَكرٍ بين الكلمات كفيلاً بتسريبِ مشاعِرِها دونَ أن يكونَ دليلَ إدانةٍ لها بالحُب..

هي نطقَتْ "لن أقولَ أحبُّكَ".. بشطرين وبتباعدٍ زمنيٍّ بين الكلمات يجعلها تبدو كـ "أحبُّك جِدَّاً"... وكانَ هذا كافٍ لسعد الذي يفهمها من إشاراتِها..

لم يفسدْ عليهما جلسةَ الاعترافاتِ هذه إلا فرمَلةُ السيَّارةِ بقوةٍ وتوقفها بشكلٍ مُفاجِئ..

يا ترى هل حانَتْ ساعتُهما؟

كم تطولُ اللحظاتُ في هكذا موقفٍ فتبدو كساعةٍ رمليَّةٍ مَسدودة العُنُق...

"يا إلهي... سعد أنا خائفة جداً"...

"مَهلاً.. اخفضي صوتَكِ قليلاً.. لا داعي لكلِّ هذا الخوف.. أعتقد أنَّنا نمرُّ بحاجزٍ ما.. هناك جلبةٌ وأصواتٌ في الخارج"..

كانَ تخمينُه في محلِّه.. فالحواجز على الطريق كثيرةٌ.. بعضُها يجبِرُكَ على التوقُّفِ للتفتيشِ والبعضُ الآخرُ يكتفي بأن تدُسَّ في جيبِه المال و(اتيسَّرْ) بَمن وما مَعكَ.. رافقَتْكَ السَلامة..

مشكلةُ هذِه الحَرب أنَّهُ اختلطَ فيها الصادقونَ المُخلصونَ بالمنافقين المادِّيين ليشَكلوا جبهةً غير مُتجانسة وهشَّة.. يسهُل اختراقُها بالمال.. فيُطاحُ بالصادق ويُصنَع له تمثالٌ كنصبٍ تذكاريٍّ لتكريمِهِ.. ويتربَّعُ المُنافقُ على كَومةِ دولاراتٍ.. نادِباً حظَّهُ في النصر... ومُقدِّماً فروضَ الولاءِ والطاعةِ لحاكمِ بنك تمويلهِ أيَّاً كان..

في النهاية.. هي لعبةُ مالٍ وسلاحٍ.. وتنازُع نُفوذٍ على مُقدَّراتِ وخيراتِ البَلد..

تَمكَّنَ جابر وكما هوَ مُتوقَّع من تدبُّرِ أمرِ الحواجزِ على طول الطريق.. وما هيَ إلاّ نصفُ ساعةٍ ويصلونَ إلى المكان المَقصود..

بيتٌ مَهجُورٌ مُتَطَرِّفٌ يقَعُ على تلة صغيرة.. يملكُه جابر ويتردَّد عليه بين الحينِ والآخر.. وهو الخيار الأمثلُ لاحتجاز الرهَينتين دونَ أن يعلمَ بمكانِهِما أحدٌ..

خلفَ البيتِ زريبةٌ كانت مُخصَّصةً للمواشي التي نفَقَتْ بعد تعرُّضِها للقصفِ المُتكرِّرِ فأصبَحَتْ مَرتَعاً للأفاعي والحشرات..

المكانُ أشبَهُ بِخَرابةٍ نصف مفروشة.. ولن تطيبَ لهما الإقامةُ فيهِ أبداً..

"قلْ لي يا هزّاع.. أنتَ من حلب؟ لهجتُكَ ليستْ حلبيَّة لك خاي".. سألَ جابر وهو يقدِّمُ له سيجارة..

"شكراً مُعلمي.. لا أدخِّنُ أثناءَ القيادة..

لا أنا لستُ من حلب لكن لي أقرباء هنا في الريف كنتُ أنوي إلقاءَ التحيَّةِ عليهم لدى عودَتِنا إن استطعتُ"..

"قلْ إن شاءَ الله.. قلْ إن شاءْ الله..

حسناً وما الذي دفعَكَ لتَركِ الفصيلِ المُقاتِلِ الذي كنتَ مُنخَرطاً بهِ لتتلثَّمَ منه الآنَ؟"..

"في إحدى الهَجَمات غنِمْنا مبالغَ ماليَّة ومصوَّغات ذهبية جمعناها من البيوت التي هربَ أصحابُها من شبيحة النظام بملابس نومِهم.. بعد أن أمطرناهُم ليلاً بالقذائِف.. فتقاسَمَ الشبابُ الغنائمَ وتركوا ليَ من الجملِ أذُنَهُ..

تشاجَرْتُ معَهم وطلبْتُ من المَسؤولِ عنِّي إعفائي من الخدمة فرفضَ ووعدَني أنَّهُ سيصلحُ الأمرَ وسآخذُ حقِّي.. انتظرتُ كثيراً ولم يحرِّك ساكناً.. فتركتُهُم في إحدى الليالي.. ووصلتُ على دراجةٍ ناريَّةٍ إلى حلب الشرقيَّة.. استقبلَني المُعلم صَطُّوف ودعَاني للانضمامِ إلى فصيلِه.. وها أنا ذا هُنا في خدمةِ شواربِ الطيِّبين"...

"تسلم شواربَك يا طيِّب.. واخترتَ لكَ اسم هزّاع أم أنه اسمك الحقيقي؟"

"هو اسمي الحقيقي.. هزّاع.. لكنهم يلحقون به الأسمر.. هزّاع الأسمر"..

"والنعم والسبع تنعام منَّك حبيبي هزّاع.. سننتصرُ وتنتصر ثورتُنا المباركة بأمثالِكَ من الشباب الجدَعة".. قال جابر شعارَه الرنَّان هذا.. مُكرِّراً أسطوانتَهُ المَشروخة.. وهو يَهمُّ بإشعالِ سيجارةٍ ثانيةٍ ويرفعُ صوتَ الراديو بما يبثُّه من أغاني السهر التركية..

ففي الريف الشماليِّ باتَتْ شبكاتُ الجوَّالِ والإنترنت ومحطَّاتُ البثِّ الإذاعيِّ التركيَّة هي المُهيمنة والسَائدة..

لم يمضِ الكثيرُ من الوقت حتى وصلت السيَّارةُ إلى المكان المقصود..

"اركُنْ السيَّارةَ هُنا قبالةَ الدار يا هزّاع ووجِّه مصابيحَها للإضاءة.. لا كهرباء كما تعلم والظلامُ دامسٌ.. سأنزلُ لأتفقَّدَ المكانَ وأُنيرَ سِراجَ الكازِ.. إبقَ يقِظاً حتى نَطمَئِّنَ إلى كلِّ شيءٍ"..

"أمرك مُعلم جابر.. في انتظارك"..

تفقَّد جابر البيت من كلِّ الجهات وتأكَّد من تأمِينِهِ.. وأضاءَ مصباح الكازِ الذي كان قد جهَّزه في آخر زيارةٍ لهُ للمكان.. ثم أوعَزَ لهزّاع بالنزولِ فتلثَّمَ وفتحَ صندوقَ السيَّارةِ وأشارَ ليارا وسعد بالنزول أيضاً..

"هَيَّا ترجَّلا يا خَواجات.. الحمدُ لله على السلامة.. وصلنا.. نوَّرتُما قصرَ الضيافةِ الجَديدِ".. خاطبهُما جابر بسخريَّةٍ وتَهَكُّمٍ.. وبدأَتْ الإقامةُ الجَبريَّةُ الجديدةُ.. للرَهِينَتين..

مُسلسَلُ الصَدَمَات

مع إطلالةِ الصَباح.. بدأتْ خيوطُ الشمسِ الأولى تخترقُ شقوقَ دفَّات الخشبِ التي صنعَ منها جابر شبابيكَ مُؤَقَّتة لمنزلِهِ السريِّ هذا..

بعدَ أن تَحطَّمَتْ كلُّ النوافذِ في قصفِ الطائراتِ الذي يَطالُ القريةَ بينَ الحينِ والآخر..

باتَ هوَ وهزّاع على أريكَتين في الغرفةِ الرئيسيَّةِ.. بينما باتَ سعد في المَمرِ الخارجيِّ مُكبَّلاً على فراشٍ مُصَوَّفٍ عَتيقٍ برائحةٍ كريهةٍ وأغلب الظنِّ أنَّ العثَّ شاركَهُ ليلتَه فيه..

فيما كانت الغرفة الصغيرة الخلفيَّة من نَصيبِ يارا كونَها امرأة لتَبيتَ فيها على حَصِيرةٍ من النايلون كُتِبَ عليها باللغة الانكليزيَّة UNHCR اختصار (مُفوضيَّةُ شؤونِ اللاجئين).. ترَاها مُعمَّمَة على مُعظمِ البيوتِ المَنكوبةِ في القرية.. هيَ غالِباً حصيرةٌ تُقدَّمُ مع المَعونات التي تأتي من الأممِ المُتَّحِدَة.. لتصبِحَ براند الحَربِ وأيقونَتَها وتذكارَها في مناطق الشمال..

"اليوم سنعملُ على تركيبِ قفلٍ لكلِّ غرفةٍ يا هزّاع.. خذْ مفاتيحَ السيَّارةِ وابحث لنا عن صانعِ أقفالٍ في الجِوار.. وأنا سأبقى هنا أحرسُ العينتين".. قال جابر باستهزاءٍ في إشارةٍ إلى سعد..

"حاضر معلم.. لن أتأخرَ إن شاءَ الله.. وسأحضرُ معيَ شيئاً للغَداء"..

همَّ هزّاع بالنهوضِ مُغادِراً.. ولم ينسَ أن يتلثَّمَ قبلَ خروجِهِ مِنَ الغُرفة.. وما إن رآهُ جابر يغيبُ عن ناظره من الشبَّاك.. حتى خرَجَ ليُجريَ اتصالاً هاتفيَّاً خاصَّاً مع المُعلِّم صَطُّوف أمامَ الدار..

ليسَ فقَط لأنَّ تغطيةَ شبكةِ الجوَّال التُركية "تُوركسِل" هي أفضل في الخارِج.. لكنَّهُ لا يريدُ لأحدٍ أن يسمَعَ تفاصيلَ حديثِه..

- ألو نعم.. أهلاً مُعلمي.. الحمدُ لله أجل أنا بخير.. لم أستطع الاتصالَ بالأمس.. كان الأسمر جالساً بقُربي.. أرسلته الآن في طلبِ بعضِ الحاجيَّات لأتمكَّنَ من الحديث معكَ بِحُريَّة..
- وصلْنا البارحة ليلاً.. نعم لم أتصلْ لكنِّي أرسلتُ لكَ رسالةً نصيَّة كتبتُ فيها التفاصيل..
- ما إنْ أطمَئِنُّ إلى ترتيباتِ أمانِ البيت وأركِّبُ الأقفالَ.. سأقومُ بتَصفيَتِهِ..
- لا تخفْ.. رصَاصةٌ واحدةٌ في رأسِهِ مِنَ الخَلف وهو يُعِدُّ لنَا الطعامَ تَكفي.. هههههه.. تلاميذُكَ نحنُ معلم.. تلاميذُ الدِيب.. تسلَم.. لا تقلقْ كلّ شيءٍ سيكونُ على ما يُرام كَما خَطَّطنا..
- على كلِّ حالٍ إن جدَّ أيُّ جديدٍ سأُوافيكَ بهِ.. وأراسِلُكَ كتابةً بالرسائلِ النصيَّةِ إن لم أتمكَّن من الاتصال صوتيَّاً لوجودِهِ قُربي..
- نعم سأقيِّدُهما وأضعُ كلَّ واحدٍ في غرفةٍ وأُحكِمُ إقفَالَها.. وسَأبقى هُنا للحِراسَة بضعَةَ أيامٍ.. لنَرى ما يَسْتَجِدُّ من أمورٍ ومتى سيتصلُ ذَووهم أو مدراؤُهُم بِنا لنبدأ التفاوضَ..
- أكادُ أشتَّمُ رائحةَ رُزَمِ الدولاراتِ يا مُعلمي..
- هههههه.. نعم وهو كذلك.. بأمانِ الله.. يا تاج راسي..

أنهى جابر مكالمته.. وعادَ للدار ليجدَ سعد وهو يحاولُ الوقوفَ بعد أن شعرَ بتفاقمِ الألمِ في كتفِهِ نتيجةَ وضعيَّته السيِّئة في النومِ ليلاً..

كانَ يريدُ أيضاً أن يطمَئِّنَ على يارا في الغرفةِ المُجاورة ويتحدثَ معها قليلاً ليخفِّفَ عنها هلعها.. لكنَّهُ أخفقَ في ذلك..

"إلى أين يا غُرابَ البين؟ غابَ القِط إلعبْ يا فأر؟ حدودُك هذه الغرفة.. إلزَمْ حدودَك وإلا أوثَقْتُكَ إلى الكُرسيِّ".. نَهَرَهُ جابر بِحدَّةٍ ودفَعَهُ ليَسقُطَ مُجدَّداً على الأرض..

"لنرَ كيفَ هوَ حالُ جارتِنا الجميلة في الغرفةِ المُجاورة.. لعلَّها تكونُ مُطيعةً ومُتعاوِنةً أكثرَ منكَ"..

توجَّهَ إلى غرفة يارا تسبِقُه نواياهُ القَذرة مُستغلاً غيابَ هزّاع.. وعجزَ سعد وإصابتِه..

"صباحُ الخير على الحلوين.. أرى أنَّكِ نمتِ جيِّداً يا برنسيسة".. وقفَ عندَ بابِ غرفتِها مُخاطِباً إيَّاها بِسَماجَةٍ وكانت قد استيقظَتْ مُتأخرةً بعد أن أنهَكَتْها رحلةُ الليل..

"صبيَّةٌ حلوةٌ ومُتعلِّمةٌ مثلك كم تُساوي يا ترى عندَ أهلِها ومديرِها في العمل؟

إذا كنتُ أنا مَنْ سيضعُ التسعيرةَ والرقم.. فأرى أنَّكِ تُساوينَ الكثيرَ بطلعتك البهيَّةِ هذه حتى وأنتِ مُستيقظة للتوِّ مِنَ النوم".. قالَ جابر وهو يقتربُ من يارا شيئاً فشيئاً..

مَنْ كانتْ فيهِ الخِسَّةُ لا يستطيعُ التَخلِّيَ عنها ويبدو أنَّ نفْسَهُ راودَتْهُ للإقدامِ على أمرٍ قذرٍ.. فاقتربَ مِنها لدرجةٍ أخافَتْها..

"أنا لم يُكن في ذِهني أيُّ نيَّةٍ عاطلةٍ تِجَاهَكِ يا جَميلة.. لكنِّي ومن سوءِ حظِّكِ.. قد اشتقتُ لزوجَتي أمّ العيال كثيراً.. ليسَ كثيراً... لكن من الحَماقةِ أن يكونَ بينَ يدَيِّ المَرءِ هذا الجَمال ولا يُقَدِّرُهُ..

ما رأيكِ بالقليلِ من الراحةِ.. هل أفكُّ وثاقَكِ قليلاً لنتَفاهَم؟".. أمسكَ عقدةَ وثاقِ يَدَيها المُكبَّلَتَين في إشارةٍ إلى عرضٍ خَسيسٍ ومقايَضَةٍ قَذِرة.. فدَفَعَتْهُ بكلتَي يَدَيها وصرخَتْ في وجْهِهِ..

"ابتعدْ عنِّي أيُّها الحَقير.. تفو عليك وعلى أمثالِكَ من رِجال".. كانَ ردُّ فِعلِها هذا كالشرارةِ التي فجَّرتْهُ غَضَباً كشحنةِ بارودٍ..

نهضَ والتقطَ عَصاً خشبيَّةً مِن أقصى الغُرفة وانهالَ عليها ضَرباً وهي تُغطِّي رأسَها بوثاق يَدَيها وتستَغيثُ..

كانَ سعد يشتَّمُ رائحةَ النَتانَةِ والغدرِ من جابر لكنَّه مُكبَّلٌ عاجزٌ عن الإتيانِ بأيِّ ردِّ فعلٍ..

بالكاد استطاعَ أن يستجمعَ قواهُ وينهضَ ليهرعَ بوثباتٍ متلاحقة بقدمين مكبلتين كما الأرنب إلى الغُرفةِ المُجاورة..

"دَعْها أيُّها الحيوانُ القذرُ.. ابتعدْ عنها".. صرخَ بأعلى صوتِهِ واندفعَ بكُلِّيَتِهِ ليندسَّ بينَهما ويشَكِّلَ بجسدِه المُكبَّلِ سدَّاً يَقي يارا تلكَ الضَربات المُبرحة.. فاستفزَ بتَدخُّلهِ جابر الذي صَبَّ جامَ غضَبِهِ عليهِما مَعاً وشَرَعَ يزيدُ مِن حِدَّةِ وشراسةِ ضرباتِهِ بعد أن طرَحَهُما أرضاً أمامَه..

لحُسْنِ الحظ لم يتأخرْ هزّاع كثيراً..

ما إن رَكَنَ السيَّارة في الخارج وأطفَئ مُحرِّكَها.. حتى تَناهَتْ إلى سَمْعِهِ أصواتُ العِراكِ في الداخل..

هو بالأحرَى ليسَ عِرَاكاً.. بل عمليَّة تعذيبٍ وانتهاك للإنسانيَّة..

أشهرَ مُسدَّسَهُ على الفَور لدى سَماعِه أصواتَ الاستغاثةِ واقتحمَ البَيتَ فرَكَلَ البابَ بِقوَّةٍ وفي ثوانٍ صارَ أمامَ غُرفةِ يارا..

"توقَفْ يا جابر.. أُحَذِّرُكَ.. سأُطلِقُ النار".. صَرخَ في وجهِ جابر بعَينَينِ شَاخِصَتَينِ تقدحانِ غَضَباً وتوتُّراً مِن وراءِ اللثامِ..

"ماذا تقولُ يا ابنَ الـ ...

حَسَناً كُرمَى لِهاتَين العينَين البَرَّاقَتَين سأُفرِغُ مُسَدَّسي في رأسَيّهِما"..
أرادَ جابرُ ترويعَهُما وتَهديدَ هزّاع ولَجْمَهُ فحسب..

هوَ لا يُريدُ أن يخسَرَ دجاجَتَهُ التي يتوقَّعُ أنَّها سَتبيضُ ذَهَباً.. ولن يُفرِّطَ بهما حتماً.. لكِّن إن اضطرَّهُ الأمر قد يُطلِقُ الرصاصَ على الأرجل فقط لبَسْطِ سَيطَرَتِهِ على الوَضع واسترجاعِ هَيبَتِهِ من جديد..

ما أن مدَّ يدَهُ ليسحَبَ المُسَدس الذي على خاصرتِه حتى باغَتَهُ هزّاع مُبادِراً في عُجالة وأفرغَ ثلاثَ رصاصاتٍ مُفاجِئة في صدرهِ أردَتْهُ على الأرض ككيسٍ من الإسمنت.. غارقاً بدمائِه..

سادَ الصمتُ لثوانٍ وجَمُدَ كلٌّ في مَكانِهِ يُحاولُ استيعابَ ما جَرى..

استيعابَ المَشهدِ برمَّتِهِ!!

كلُّ هذا حدثَ في بضعِ دقائق؟

بضع دقائق كانت كفيلةً بنصبِ مسرحِ جريمة؟

هي ليستْ جريمةً بمعنى الكلمة.. هي ردُّ جريمةٍ.. رد اعتداءِ جابر الذي أوحى لهم أنَّه ماضٍ في عربَدَتِهِ إلى حدِّ القتَل إن لم يوقِفه أحدٌ.. وبالقَتْل!!

هُمُا الآنَ مُكَبَّلانِ أمامَ جُثَّةِ سَجَّانِهِم.. بينَما أسندَ هزّاع ظَهْرَهُ إلى الحَائِطِ ليَستَجمِعَ قِوَاهُ.. ويَدُهُ تَرتَجِفُ مِن فَرْطِ التَوَتُّرِ.. بعد أن ألقى سِلاحَهُ على الأرضِ جانِباً..

"شكراً لَكَ يا أخي.. لقد أنقَذْتَ حَياتَنا وشرَفَنا.. لا تُؤنِّب نفسَكَ.. كان سيتعشى بالجميعِ لو لم تتغدَّ بهِ أنتَ.. كانَ لا بُدَّ لهذا أن يحدُثَ وإلا لارتكبَ فينا مَجزرةً".. قالَ سعد وهوَ يَتأوَّهُ بعدَ أنْ أوسَعَهُ جَابِرُ ضَرباً بالعَصا..

يارا مِن جِهَتِهَا لمْ تُحَرِّك سَاكِناً.. كانتْ تحتَ وقعِ الصَدمةِ أيضاً بعدَ أن طَرَحَهَا ضَرْبُ جابر أرضاً.. فأغمَضَتْ عينَيها لدقائق قبلَ أن تجهشَ بالبُكاء.. لتُفرِغَ ما في جُعبَتِها من قهرٍ وخوفٍ واشمئزازٍ..

لم يواسِها سعد ولم يطلبْ مِنها أن تَكفَّ عنِ البُكاء.. كانَ يُريدُها أن تُفرِغَ شحناتِ التَشَنُّجِ التي أصَابَتْها.. ففي البكاءِ راحةٌ أيضاً.. وإلا تَمَزَّقَتْ روحُها مِنْ هَولِ ما شَهِدَتْهُ اليَومَ..

أيامُ عمرِها كلُّها بكفَّةٍ.. وهذا اليومُ بكفَّةٍ أخرى..

أشفَقَ هزّاع عَليها.. فتمَالَكَ نَفْسَهُ ونَهَضَ صَوبَها ليَحِلَّ وثاقَها ويُعطِيها مِنديلاً تَمسَحُ بِهِ دُمُوعَها التي حَفَرَتْ مَسَاراتٍ بيضاء على تضاريسِ وجهِهَا المُتَّسِخِ المُغبَرّ.. فَعَدَّلَتْ من وضعِيَّتِها لتجلسَ على الأرض وتَمسَحَ دُموعَها بِيَدَيها النَحيلَتَين المُرتَجِفَتَين..

لا يليقُ بالأنثى إلا اللين والرِفق.. مَهما بدَتْ أختَ رجالٍ..

سعدٌ أيضاً تَحرَّرَ مِن وثاقِهِ بمساعدةِ هزّاع الذي لم ينزعْ لثامَهُ بعد..

"شكراً مَرَّةً أخرى يا أخي.. جزاكَ اللهُ عَنَّا كلَّ خَيرٍ.. لا أعرفُ كيفَ سنردُّ لكَ جميلَكَ هذا.. نحن مَدينانَ لكَ بحياتِنا".. قالَ سعد بِتودُّدٍ..

"لا شُكْرَ على واجبٍ يا أخي.. وقد نالَ هذا الخَسيسُ ما يَستَحِقُّ.. لكنَّ للموتِ رهبة.. هذا كلُّ ما في الأمر".. أجابَهُ هزّاع وهو ينظرُ إلى يارا التي رفَعَتْ رأسَها بِتَحَفُّزٍ وانتباه لدى سماعِها بتركيزٍ نبرةَ صوتِهِ للمرَّةِ الأولى.. فقبَلَ قليلٍ كان التوَتُّر سيِّدُ المَوقفِ.. وكانتْ أصواتُهم الأربعة مُتشابِكَة ولم تَنتَبِه لنبرَتِه مُنفَرِدةً..

أما وقد تحدَّثَ الآنَ بوضوحٍ فقد أثارَ فيها شُعوراً غريباً لم تكدْ تَضَع يدَها عليه حتى بادَرَها مُستَبِقاً خَواطِرَها بعدَ أن كشَفَ اللثَامَ عن وجهِهِ قائلاً:

"كيفَ حالُكِ يارا؟"...

نظرَتْ إليهِ بحَدَقَتَينِ مُتَّسِعَتَينِ وبذهولٍ اجتاحَها بقوَّةٍ..

فما كانَ مِنها إلا أن صَرَخَتْ في وجِهِهِ قبلَ أن يُغمى عَليها هذه المَرَّة....

صَرَخَتْ بِصَوتٍ مَخنوقٍ قبلَ انهِيارِها غيرَ مُصَدِّقَة ما تراه..

"ياااااسر؟؟؟؟"...

مُنَاوَشَاتٌ أخويَّة

لا نُبالِغُ إن قُلنا أنَّها صَدمةُ العُمر..

تلكَ اللحظة التي يقفِزُ فيها أمامَ ناظِرَيك غَالٍ لطالَمَا تَرحَّمتَ عليهِ مُعتقداً أنَّ المَوتَ قدْ فَجَعَكَ بِهِ وخَطَفَهُ مِنْكَ.. غالٍ تعيشُ على ذِكراه.. ظهرَ فجأةً كما رحلَ فجأةً ودونَ سابقِ إنذارٍ.. أمرٌ قدْ لا يستوعِبُهُ العقلُ بغيرِ تفسيرٍ أو تبريرٍ مَنطِقيٍّ..

لا تَقِلُّ صَدمَةُ لقائِهِ اليوم عن صَدمَة فقدانِهِ بالأمس..

غيرَ أنَّ المَشاعِرَ التي تعقبُ اللحظات الأولى للحدَثِ مُختلفةٌ كُليَّاً.. وفي الحالتَين هناك دموعٌ.. تارة مَالحة وأخرى حلوة...

حاولَ ياسِر إنعاشَ يارا وإيقاظَها بعد أن غابَتْ عن الوعي لدى رؤيتِهِ هكذا فجأةً أمامَها..

صَحيحٌ أنَّها استَشْعَرَتْ صَوتَهُ عندَما تَحَدَّثَ معَهُما بوضوحٍ للمَرَّةِ الأولى.. لكن وقبلَ أن تَتَمَكَّنَ مِنْ مُطابقةِ الصَوتِ مع الصورة في رأسِها ظهرَ وجهُ ياسر أمامَها كالبدر بعد أن كشفَ عن لثامِه..

لا عجبَ أنَّها تحتاجُ الآنَ إلى بركةِ ماءٍ أو شاحنةٍ منَ البَصل لإيقاظِها..

"يارا.. عزيزتي.. استفيقي.. أنا ياسر أخوكِ.. لا تقلقي.. كلُّ شيءٍ على ما يُرام إن شاءَ الله".. ردَّدَ ياسرُ وهوَ يَلطمُ وَجهَهَا بِرِفقٍ لعلَّ ذلك يساعِدُها على استعادةِ الوعي..

سعدٌ مِنْ جِهَتِهِ جَمُدَ في مَكانِهِ للحظات مُتَفرِّجاً.. يحاولُ أن يهضمَ المَوقِفَ بِرُمَّتِهِ.. ما هذا الصباحُ العَجيبُ!

حَدَثَ في نصفِ سَاعةٍ مِنْهُ ما لم يخطرْ على البالِ حتى مع أحداث الحرب..

ماتَ أحَدُهُم.. وعادَ آخرُ مِنَ المَوتِ..

"لو سمحت.. هناكَ قنينة ماءٍ في المطبخ اجلبها بسُرعَة"... طلَبَ ياسر المُساعدة من سَعد.. مما دَعَاهُ للتَحَرُّكِ أخيراً بعد أن كانَ يصفنُ فيهما كالصَنَمِ..

"حَسَناً.. حَسَناً".. نهَضَ سَعد بصُعوبةٍ مُتَّكِئَاً إلى الحائط وقد غطَّتْ الكَدَمَاتُ جسَدَهُ المُتثاقِلَ.. وتوجَّهَ إلى المطبخ وهو يعرجُ بعد أن تلقَّى ضربةً قويَّةً على ساقِهِ اليُمنى..

"لا ألومُها يا أخي.. فالموقفُ صعبٌ جدَّاً عليها.. وأكبرُ من طاقتِها على الاحتمال.. مع أنَّها قويَّةٌ بما فيهِ الكِفاية.. لكنَّ جرعَة الصَدَمَاتِ والهَلَعِ التي تَلقَّتْهَا اليوم كانَتْ مُفرِطَة واستثنائيَّة كَمَّاً ونَوعاً..

سَتَسْتَيقِظُ لوحدها الآن لا تخفْ.. لديَّ خبرةٌ في مثلِ هذه الحالات..

أمرٌ طبيعيٌّ وستعودُ لوعيِها خلالَ ربعِ ساعةٍ شيئاً فشيئاً إن شاءَ الله.. لكن عليكَ أن تبحثَ عن روايةٍ تُرضي وتُقنِعُ مَداركَها وعقلَها لتُفسِّرَ لها كلَّ شيءٍ بعدَ ذلكَ".. قالَ سعد مُراقِباً ياسر وهو يرشُّ رذاذَ المَاءِ ويمسَحُ بهِ وجَهَهَا..

"هذا ما يُقلِقُني يا صديقي.. أنا أعرفُها جيِّداً.. وأعرفُ أنَّ ما سَأقولُهُ لن يُرضيها أو يشفعَ لي عندَها.. لنسأل الله أن تصحوَ أوَّلاً بالسلامة على خير وليحدُث بعدها ما يَحدُث".. تنهَّدَ ياسِر بقلق وهو يراقبُ وجَهَهَا مُنتظِراً أن تفتحَ عَينَيها..

مَرَّتْ عَشرُ دقائقَ صامتةً قبلَ أن تبدأ يارا بتحريكِ رأسِها وتُتَمتِمَ بشَفَتَيها:

"ماء.. أريدُ ماءً.. أشعرُ أنَّ حلقي قدْ جفَّ".. هرعَ ياسر إلى المطبخ وأحضرَ لها كوباً من الماء وأسند رأسَهَا بيدِهِ ليتمَكَّنَ مِن سِقايَتِها..

فَتَحَتْ عينَيها ونظرَتْ إليهِ شاخِصةَ البصرِ.. بعد أن شرِبَتْ القليلَ منَ الماء..

"الحمدُ لله على سلامتِكِ أختي.. سأشرحُ لكِ كلَّ شيءٍ بعدَ أن ترتاحي.. صَدِّقيني.. سأشرحُ كلَّ شيء".. قالَ ياسر مُحاولاً التخفيفَ عنها.. والتمهيدَ للدفاعِ عن نفسِهِ في جلسةِ مُحاكمةٍ مُرتَقَبة..

بقيَتْ صامِتَة وأشاحَتْ بوجهِهَا عَنهُ مُتجاهِلةً إيَّاهُ في إشارةٍ إلى حنقِها الشَديد.. والتفَتَتْ إلى سعد.. "كيفَ حالُكَ أنتَ يا سعد.. لا شَكَّ أنَّ جسَدَكَ مُضَعْضَعٌ.. لقد أشبَعَكَ هذا الحقيرُ ضَرْباً بِسَبَبي.. أنا مَدينةٌ لكَ بالاعتذارِ عن كلِّ الألمِ الذي لحقَ بِكَ منَ الأمسِ إلى اليوم.. لكن ماذا سنفعلُ الآنَ بجثَّةِ هذا البَغْل؟"..

"لا عليكِ.. المهم أنَّكِ بخيرٍ الآن.. سيتمُّ إصلاح كلّ شيء.. وسنكونُ جميعاً بخير إن شاء الله".. أجابَها سعد..

"سأتَخلَّصُ من الجُثَّةِ في الزريبةِ الخلفيَّةِ للبَيت.. وأحفرُ لهُ قَبراً الآن لنرميهِ فيهِ غيرَ آسفين".. قال ياسِر مُوجِّهاً كلامَهُ لسعد مُحاولاً امتصاصَ غضَبِ يارا...

"لكنَّنا الآنَ في ورطة.. ماذا لو اتصلَ أحدُهُم به.. علينا أن نُغلِقَ جوَّالَه لنتجنَّبِ الحديثِ مع أيٍّ من مَعارفِهِ خاصَّةً الديب ورجالِه".. قال سعد..

"لا تقلق فقد أمضى الوقتَ كلَّهُ بالأمسِ ونحنُ في الطريق يراسلُهم ويبلغُهُم أنَّنا بخيرٍ"..

"نعم وسمعتُهُ اليومَ صَباحاً يُجري اتصالاً خارجَ المَنزلِ مع أحدِهم أثناءَ غيابِك.. لكن لم أفهم شيء.. كان صوتُه بعيداً.. طيَّب لنفتح الجوَّالَ ونتفقَّد رسائِلَه إذاً فقد تتضِحُ لنا أمورٌ كثيرةٌ"..

"نعم نعم.. سنفعَلُ حَتْماً.. لكن علينا أن ندفِنَهُ أوَّلاً قبلَ أن تُلَوِّثَ دماؤُه النَجِسَة المكانَ أكثرَ من ذلك.. علاوةً على أنَّني لا أطيقُ رؤيةَ وجهِهِ الشنيعِ هذا حتّى وهوَ مَيِّتٌ.. هيا فلنُنهِ الأمرَ الآن"..

نَهَضَ ياسر وَهَمَّ بِسَحْبِ الجُثَّةِ مِن كَتِفَيها يُساعِدُهُ سعد على قدرِ استطاعَتِهِ.. وخرجا صوبَ وجيبة الدار لإتمامِ الدفن..

نَظَرَتْ يارا إلى خطوطِ الدماءِ التي رسَمَها سَحْلُ الجُثَّةِ على الأرضِ أمامَها.. دماءٌ ما تزالُ ساخِنةً لشخصٍ كانَ قبلَ دقائقَ يَسْرَحُ ويَمْرَحُ ويُعَرْبِدُ حَيَّاً هُنا تماماً فوقَ مَكانِ خطوطِ دِمائِهِ!

كم هوَ قريبٌ المَوتُ مِنَّا!! أقربُ بكثيرٍ مما نظنُّ أو نتمنَّى..

لكن ما الذي أتَى بياسر إلى هُنا في هذا التوقيتِ تَحديداً؟

هل انخرطَ في مجموعاتٍ عشوائيَّةٍ مُسلَّحة؟

أكانَ سفرهُ إلى ألمانية كذبةً لتغطيةِ غيابِهِ؟

لكنَّها تَلقَّتْ خبرَ وفاتِهِ من جهاتٍ رسميَّةٍ في إيطاليا؟

أيُعقَلُ أنَّهُ تَشابُهُ أسماءٍ؟

أو أنَّ هناكَ التباسٌ وخلل في نقلِ المعلومات؟

أسئلةٌ كثيرةٌ تَتَخَبَّطُ في رأسِها.. لكنَّها تنتظرُ أن تتمالكَ نفسَها وأعصابَها وقِواها.. لتبارِزَ ياسرَ وتحصُرَهُ في زاويةِ تأنيبِ الضَمير..

أنهى الشبابُ دَفْنَ جابر بعد أن فَتَّشوهُ واحتفظوا ببعضِ المُتَعَلِّقاتِ التي كانَتْ بحَوزَتِه.. ثم فتَحوا جوَّاله وفَتَّشوهُ هوَ الآخرَ.. وكانت المُفاجأة التي تنتظرُ ياسر!

مُحادَثَةٌ طويلةٌ بينَ الدِيبِ وجابر مَفادُها أنَّ الأخيرَ سيتخلَّصُ من ياسر لكن بعدَ تسخِيرِهِ لقضاءِ بعضِ المَهامِ..

رصَاصةٌ واحِدةٌ تأخَّرَتْ عن موعِدِها قليلاً فقلَبَتْ الأدوارَ والمَصائِرَ..

"يا إلهي!! كانَ يَنوي هذا الحَقير قتليَ.. في أيِّ مُستنقَعٍ كِدّتُ أرمي نفسي؟ يا لغبائي!"..

"سبحانَ الله.. لا أحدَ يَموتُ بعمرٍ ناقصٍ.. الحمدُ لله على السلامة أخي ياسر.. لا تُفكِّر الآنَ فيما مَضَى.. المُهم أنَّكَ الآنَ بينَنا بالسلامة"..

سَكَتَ سعد للحظة ليَهمِسَ بعدَها في أذُنِ ياسر:

"لكن لنَعترِفَ أنَّكَ الآنَ أمامَ مَوقفٍ أصعب.. مواجهة يارا.. ولا أحسدُك عليها.. فكِّر بما ستقولُه لها.. وحتى وإن رفَضَتْ الإنصات.. عليك أن تُلِّحَ عليها بالكلام..

لن يرتاحَ الجميع إلا بالمُصراحة وتوضيحِ نُقاط سُوءِ الفَهم..

اسمع.. أنا سأدخل لأحاول مُمازَحَتها وتعديل مزاجِها قليلاً ثم سأنسحِبُ تاركاً إيَّاكما معاً لتتفاهَما.. رتِّبْ أفكارَك ريثما أمهدُ أنا الطريقَ لك معها يا صَاح"..

"حَسناً.. شكراً أخي سعد.. ونِعْمَ الصديقُ أنت.. وأشكركَ على حماية أختي من هذا الحقير ومحاولتك صدّه عنها.. لن أنسى جميلَكَ هذا ما حَييت".. ردَّ ياسر مُعبِّراً عن امتنانِه..

ربَتَ سَعد على كَتِفِهِ وتَوَجَّهَ إلى غرفة يارا ليُدَردِشَ معها قليلاً..

"هاااا.. كيفَ حالكِ الآن يرووش خانوم؟

يكفي دلال وانهضي لنحتَفِلَ بنجاتِنا.. ما بكِ؟

ألا تُدركينَ كم نحن مَحظوظان بموتِ هذا الوَحش؟

أصبحَ بإمكانِنا الآنَ العمل على العودةِ إلى حلب الغربيَّة..

هَيَّا استجمعي قِواكِ ولنُفكِّر بمُخطَّطِ العودَةِ"..

"هلْ أخْفَيتُم الجُثَّةَ؟"..

"نعم.. وتعلمينَ ماذا؟ فَتَّشْنا ذلك الحَقير فوجدنا مُحادثةً في جوَّالِهِ مع الدِيب يتَّفِقانِ فيها على قتلِ هزّاع.. أقصد ياسر... أ .. خـ .. ـا .. كِ"..

لفَظَها سعد بتردُّدٍ وارتباكٍ وكأنَّه يخشى التوبيخَ عليها.. بَدَتْ كلمةُ "أخاكِ" الآن وفي هذا التوقيت بالذات ثقيلةً ومُربِكةً وجالبةً للمَشاكِل.. ثم أردَفَ:

"ولن أخبِرَكِ عن الصُور والفيديوهات الإباحيَّةِ الكثيرة التي يَنْضَحُ بِها كرْتُ ذاكرةِ جَوَّالهِ.. هذا الرجلُ قَوَّادٌ ولا شَكّ"..

"اسمعي.. أعلمُ أنَّكِ غاضبةٌ جدَّاً من ياسر.. لكن هذا لا يجرِّدُهُ من حقِّهِ في فرصةِ شَرحِ وجهةِ نَظَرِهِ.. اسمَعيهِ ثم احكمي عَليه.. على الأقلّ لتُشبعي فضولَك الذي أعرِفُ تماماً أنَّهُ يُحرِّكُ في رأسِكِ العنيدِ هذا ألفَ سؤالٍ وسؤال.. ليس من أجلِهِ.. من أجلكِ أنتِ.. كَي ترتاحي بمعرفةِ الحَقيقةِ التي لَطَالَما أرَّقَتْكِ وأرهَقَتْكِ..

ثم انظري إلى الجانبِ المُشرِقِ للأمر.. صحيحٌ أنَّكِ صُدِمتِ بكذبةِ ياسر الكُبرى.. لكن في النهاية هو حيٌّ.. وهذا سببٌ كافٍ لتفرحي.. إن لم يكن من أجله.. فمن أجل ماما ناديا التي أُسْقِطَ عن كاهِلِها الآن لقبُ الثكلى..

أرجوكِ يارا.. لن نتمكَّنَ من ترتيبِ أفكارِنا والعودةِ ما لم نتجاوز هذا الأمر.. ولن نتجاوزَهُ إلا بالمُصارحة"..

لم يكدْ سعد يُنهي كلماتِه حتى دخلَ ياسر إلى الغرفة حامِلاً طبقاً من التفاح بدا أنَّهُ ليارا..

"حَسَناً.. استأذِنُكم يا جماعة عليَّ أن أريحَ جسدي قليلاً وإلا اضطُرِرْتُم لحملي إلى السيارة.. سآخذ قسطاً من الراحة في الغرفة المجاورة لعلِّي أستعيدُ بعضاً من قوَّتي ونشاطي".. قال سعد قبل أن ينسَحِبَ تاركاً ياسر أمامَ يارا وبينَهما طبقُ التُفَّاح..

"لطالما أحببتِ التفاح يا بنت.. هيا تناولي واحدة لتشدِّي حيلك"..

"أحبَبْتُ أشياءَ أخرى أكثرَ من التُفاح.. أحبَبْتُ بقاءَنا مَعاً كأسرَةٍ صغيرةٍ جميلة.. يؤازرُ بعضُنا البعض.. أحبَبْتُ أن أستَمِرَّ في مُناداتكَ وألفظَ كلمة أخي ولا أُحرَمَ منها قسراً بأنانيتكَ التي قصَمَتْ ظهري وكسَرَتني.. لكن يبدو أنَّ ذاكرتَك تحتفظُ بما تشاءُ وتُسقِطُ ما تشاء.. يا لبرودِك يا... أخي"..

"صدِّقيني يا أختي.. لم تَغِبْ صورتُكِ وأمِّي عن ذهني ولا حتى لثوانٍ.. عندما غادَرْتُ غادَرْتُ مُكرَهاً.. لم أستطعْ تحمُّلَ مَشاهِدِ

الضحايا الأبرياء وهولَ الظلم الذي وقع على أهلنا وأخوتنا.. عقلي لم يستوعب أنَّ شعبنا يُبادُ هكذا بكلِّ بُرودٍ ونحن نتابِعُ أخبارَهَم فقط من على التلفاز جالسين ببلادةٍ على أريكتِنا نتناول العشاء.. وأقصى ما نُبديه من تعاطفٍ أن نغصَّ قليلاً بلقمتِنا ثم نقرِّرَ أن نغيِّرَ القناة مَخافةَ أن نفقِدَ شهيتَنا على الطعام ونُفسِدَ وجبَتَنا لأنَّ قلوبَنا لا تتحمَّلُ وَجَعَ المَشَاهِد..

هل عندَكِ علمٌ بعددِ الشُبَّان الذين قضَوا تحتَ التعذيبِ في سراديبِ سجونِ النِظام؟

هل تتخيَّلين كم فتاة هُتِكَ عرضها بدمٍ باردٍ وتمنَّتْ الموتَ ألفَ مرَّةٍ؟ بحثٌ بسيطٌ وكلماتٌ مفتاحيَّة قليلةٌ وستُصدَمينَ بعدد فيديوهات قصص المآسي على اليوتيوب.. وما خفِيَ أعظم..

أنا قرَّرتُ أن أكونَ جزءاً من الحلِّ لا مُتفرِّجاً فحسب.. وحياتي ليست أغلى من حياة باقي الشباب الذين اختاروا طريقَ الجِهاد..

غادَرْتُ وقلبي مَعَكما.. لكنَّ عقلي مَعَهُم.. انضَمَمْتُ إلى فصيلٍ مُقاتلٍ في شمالِ حلبَ عن طريق وساطةِ صديقٍ مُقاتلٍ لي تعرَّفْتُ إليه على الفيسبوك.. واخترتُ حلب بالذات لأنَّكِ تعملينَ فيها.. أردتُ مع رحيلي أن أكونَ قريباً منكِ.. في مَدارِكِ.. لعلَّ الأيام تجمَعنا على الخَير..

لم أستطعْ إخبارَكما كي لا أحمِّلكما عبءَ كتمانِ هذا السرِّ.. فلا أحدَ يعلمُ ما قد يصيبكما ويطالكما من إجهزة الأمن والمخابرات إن زلَّ لسانُكِ أو لسانُ أمي بأنِّي انضمَمْتُ إلى صفوف الثوَّار..

سجَّلتُ اسمي عندَ المُهرِّبِ وفعلاً أُدرِجَ في قائمةٍ من ركِبوا البحرَ في تلك الرحلةِ المَشؤومَةِ ولكن من كانَ مكاني هو صديقي قَيْس المَحمود تعرفينه جيداً.. كانَ يحلم باللجوء إلى أوروبة فعرضْتُ عليهِ أن ينزِلَ مكاني ويستغِلَّ الفرصةَ شريطةَ أن ينزِلَ باسمي أيضاً كَي يتأكَّدَ خبر سفري فتقتنعا به..

لكنَّ القَدَرَ شاءَ أن يغرقَ البلم بمَن فيه ويُفتَرَضُ أنَّني منهُم.. لم أستطعْ التراجُعَ عندها..

نَعَمْ.. اخترتُ أن.... (أموتَ حيَّاً.. على أن أحيا مَيِّتاً)..

كانَ هذا أفضل من وجهة نظري.. وكنتُ قطعاً أنوي تصحيحَ الوضعِ والتواصلَ مَعَكُما لولا أنَّهُ سيُشَكِّلُ خَطَراً عليكما في الوقت الحالي إن تمَّ اكتشافه"..

"كم أنت أنانيٌّ يا رجل! ألم تفكِّر بِنا ولو لمرَّةٍ واحدة؟

مرَّة واحدة فقط كفيلة بدفعِكَ للتراجُعِ عن كلِّ هذه الترَّهات التي أسمعها الآن..

كيف استطعتَ ياسر؟

كيف طاوعَك قلبُك أن تترُكَنا أصلاً ثم ترميَ بنا في براثِنِ هذا الشعور الشَنيع بالفاجعة؟

هل تعلمُ أنَّني أنا تحديداً كنتُ أتألَّمُ طيلةَ التسعِ شهورٍ التي غبتَها؟

طيلة المئتَي وسبعينَ يوماً من الحُزنِ والأسى أتخيَّلُ لحظاتِكَ الأخيرة ومشهدَ احتضارِكَ وأهربُ منها إليها من جديد؟

ونحمدُ الله أنَّني كذبتُ على أمِّكَ وأخفيتُ عنها خبرَ موتِكَ المَزعوم..

استطعتُ أن أحيكَ كذبةً سَخيفةً لأبرِّرَ غيابَك وانقطاعَ أخبارِكَ عنها..

كنتُ أحاوِلُ تأجيلَ صَدمَتِها بكَ..

كان من المُمكن أن تَقتُلَ أمَّكَ بهكذا خبرٍ أيُّها الغبيُّ..

كيفَ استطعتَ؟ كيف؟".....

صرخَتْ يارا في وجهِ ياسر جاذِبةً إيَّاهُ من قميصِهِ بغضبٍ واستنكار..

"ثم من أجلِ من؟ من أجل حفنةِ مجرمِين كهذا البغل الذي نفَقَ قبل قليل؟ وكان ينوي قتلَكَ أيُّها المناضل العظيم المُخضرَم؟ ولعلك كنتَ ستلتَمِسُ له العذرَ لو لم تَرَهُ بأمِّ عَينِكَ يتَهَجَّمُ على أختِكَ! من يدري؟

كفاكَ كذِباً على نفسِكَ وعلينا أرجوك.. هي لعبةٌ كبرى وتفاهماتٌ دولية ومزايداتٌ وساحة مبارزاتٍ إعلاميَّة أكبر منِّي ومِنكَ تتأرجحُ بين مدٍّ وجذر.. فتارة تُلمِّعُ وتارةً تُقصي..

ثم تحدِّثُني عن هَتكِ الأعراض؟

والذي كان سيحدثُ معي قبلَ قليلٍ مِن قائدِك البطل ماذا تسمِّيه؟

مُزاح؟ أنا لا أدافعُ عن طرفٍ دونَ آخر.. لكن فلنرتدِ العدسات ذاتها عندما نتمعَّن ملامحَ هذا وذاك..

لن يُهلكنا إلا سياسةُ الكَيلِ بمكيالين.. واللعبُ على الألفاظ.. نعيبُ في غيرنا ما هوَ موجودٌ فينا"..

"لا تحكمي على الجميعِ من صورةِ هذا الخَسيس.. كلُّ جماعةٍ فيها الصالحُ والطالحُ.. وأنا أصلاً لستُ من رجاله.. وليس قائدي كما تعتقدين..

كنتُ مُتواجداً في الجِوار حين انتشرَ خبرُ وجودِك وسعد في بيت بديعة.. لم أستطعْ أن أبتعدَ وأقفَ ساكناً دونَ حراك.. قرَّرتُ أن أتدخَّلَ خوفاً على مصيركما.. دسستُ نفسي بين رجال الديب حولَ البيت.. وما أن سنحتْ ليَ الفرصةُ بمُرافقتكما حتى تشبَّثْتُ بها..

توسّلتُ إليه ورجوتُه أن يوكِلَ إليَّ قيادةَ السيارة مُرافقاً لجابر بحجَّةِ أنَّ لي أقارب في الشمال أريدُ الاطمئنان عليهم.. وتلثَّمتُ بحجَّةِ أنَّ لي على الطريق أعداء أخشى مُواجهتهم..

لكنِّي في الحقيقةِ كنتُ أتلثَّمُ منكُما أنتِ وسعد.. خشيتُ إن رأيتِ وجهي فجأةً أن تصرخي باسمي أو يفلتَ لسانُك بكلمةٍ لا تُرجى عُقباها..

وكنتُ أخطِّطُ لتحريركما ولو كلَّفني الأمرُ قتلَ جابر.. لكنِّي لم أتوقع أن أقتلَ هذا الوغد بهذه السرعة.. استعجلَ حتفَهُ بنفسِهِ..

أرجوكِ يا يارا.. أعلمُ أنَّ ما فعلتُه كانَ قاسياً.. وقد لا يكونُ عينَ الصَواب.. لكنِّي أيضاً لستُ مُقتنعاً أنَّني على ضلال..

نعم.. انخرَطتُ في كوادرِ الثورة وصفوفِها وكشفتُ شيئاً من عيوبها.. لكنِّي إن لم أكن معها.. فلن أقفَ حتماً وراء نظام براميلِ الموت والإرهابِ"..

"لستُ في صدَدِ الدفاعِ عن هذا النظام الوحشي.. ولا أُباركُ براميلَ المُتفجرات التي تُلقى على الأبرياءِ هنا.. ولا جِرار الغاز المُتفَجِّرةِ التي تحصد أرواحاً هُناك.. طبعاً لا مَجال للمُقاربة أو حتى المُقارنة.. بين إجرام الأسد المتأصل أباً عن جد.. وبين ما ارتكبه بعض من يُحسب على الثورة من مخالفات أيضاً.. لكن أنا فقط أتبرَّئُ من الدِماء.. أيَّاً كانتْ.. كمَّاً ونوعاً.. ليست صنعَتَنا أن ندخلَ لعبةً فيها دِماء.. ليسَ مكاننا..

نعم هناكَ من يتمتَّعُ بصدقِ النوايا ويُناضلُ ويُضحِّي بأغلى ما عنده لتحقيقِ النصر.. لكن هذا لا يكفي.. بالعكس هذا استنزافٌ لخيرةِ شبابِنا.. مِحرَقةٌ لهم.. هي لعبةٌ قذرة لسنا بحجمِها.. لا نملكُ فيها إلا أن نقومَ بدورٍ إنسانيٍّ.. نُساعدُ المُحتاجين هُنا وهُناك.. دونَ تمييزٍ أو انحياز.. هذا أقصى ما يُمكنُنا فعله في الوقتِ الراهن..

ستعتبرُ كلامي هذا سلبيَّة.. أعلمُ ذلك.. لكنَّكَ لن تقنعني أبداً أنَّ تجنيدك والزجَّ بك في صفوف مُرتزقةٍ كصطُّوف الديب هو الخيار الإيجابي الذي سيحلُّ المشكلة.. بل هو إطالةٌ في عمرها"..

لم تكدْ تُنهي جملتَها حتى دخلَ سعد مُرتَبِكاً فجأةً إلى الغرفةِ وفي يدهِ جوَّالُ جابر.. "أحدُهم يتَّصِلُ بجابر واسمُه علاء.. ماذا سنفعلُ الآن يا جماعة.. إن اكتشفوا أمرنا وعلموا بمقتلِ جابر.. سيرسلون كتيبةً كاملةً وراءَنا ولا شكّ.. لن ننجوَ من انتقامهم.. ماذا تقترحُ يا ياسر؟"..

"إهدأ يا سعد.. إهدأ.. ببساطة لن نردَّ على المُكالمة.. أنا أعرفُ علاء هذا.. هو أحدُ رجالِهم ومُرافقُ جابر لكنَّه كان بالأمس في مهمةٍ خارجَ حلب ولا بدَّ أنَّه يتَّصل بشكلٍ اعتياديٍّ ليطمئِّنَ عليه".. أجابَ ياسر..

"حسناً وإن اتصلَ مُجدَّداً؟ إلى متى سنتجاهلُ اتصالاتِه.. سيرتابُ حتماً"..

"دعنا نرسلُ له رسالةً نصيَّة مَفادها أنَّ الأمور بخير وأنَّ الوضع الآن لا يَسمحُ بمكالمةٍ صوتيَّة"..

"نعم.. فكرةٌ رائعة يا ياسر.. على الأقلّ نكسبُ المَزيد من الوقت ريثما نتمكَّنُ من ترتيبِ خروجِنا من هُنا"..

"علينا أن نتحرَّك بسرعة يا جماعة وكفى هدراً للوقت.. يارا أتفهَّمُ أنَّكِ مُستاءةٌ مني.. وأنَّكِ بحاجةٍ للوقتِ كي تتقبلي حقيقة ما جرى..

لكن أرجوكِ كوني عادلة.. أنا لم أخطِّط لكلِّ هذا.. بدأتُ البداية نعم.. ثم بعدها أمرٌ قادَ لآخر.. وخرج الوضع برمَّته عن السيطرة.. اغفري لي على الأقل سوءَ تقديري يا أختي.. ولنحمد الله على وجودنا الآن معاً سالمين... لكن علينا المُغادرة وتركَ هذا المكان بأسرعِ وقتٍ"..

عُقدة وعَقد

قرَّرَ ياسر اصطحابَ يارا وسعد إلى مدينةِ جرابلس في الشمالِ الشرقيِّ من حلب للقاءِ أحدِ أصدقائِهِ ممن يستطيعون مدَّ يدِ العونِ له..

"سنقصدُ جرابلس الآن.. أسلِّمُكما لصديقٍ لي اسمه حسين العوَّاد.. هو شابٌ شجاعٌ وذو نخوة.. أثقُ به وأستطيعُ ائتمانه عليكما وسيتدبّرُ أمرَ وصولكما إلى حلب"..

"وأنتَ؟ ألن تأتي مَعَنا؟ لن أسمحَ لكَ أن تترُكنا ثانيةً يا ياسر.. رجلي على رجلك أينَما ذهبت".. قالت يارا بِجَزَعٍ..

"أعِدُكِ أن نجتمعَ قريباً إن شاءَ الله يا أختي.. لكنِّي لن أستطيعَ مُرافقتَكُما الآن إلى حلب.. اسمي مُعمَّمٌ على جميعِ الحواجز.. ولا أضمنُ سلامة رقبتي إن عدتُ مُجدَّداً إلى مناطقِ النظام..

سنصلُ إلى جرابلس على الحدود مع تركية.. تتَّجِهان أنتما إلى منبج ومنها إلى حلب.. وأنا سأتدبَّرُ أمريَ في العبورِ إلى تركية.. لم يعد لي مكانٌ هُنا بعد أن قتلتُ جابر.. ما إن يعلم الديبُ وجماعتُه بالأمر سيهدرون دمي لا مَحالة..

احترقَت أوراقي لدى الطرفين.. وأصبحتُ أساساً لا أشعرُ بالانتماء لأيٍّ مِنهما.. سأجدُ لي طريقاً إلى تركية وأبدأ حياةً جديدةً هناك.. وفي أقربِ فرصةٍ تصطحبينَ أمِّي لزيارتي عندما أتِمُّ ترتيبَ مَعيشتي واستقرُّ..

ما من خيارٍ آخرَ يا أختي.. هذا أفضلُ الموجود.. ونسألُ اللهَ السلامةَ"..

ركِبَ الثلاثةُ سيارةَ البيك أب ووجهتهم الآن جرابلس التي تبعد عن التلة قرابة الـ ٩٠ كيلو متر...

شعرت يارا بالإحباط.. وانتابتْها غصَّة الفراقِ ثانيةً..

لم تلبثْ أن تجتمعَ بأخيها حتى تَقرَرَ الفراقُ من جديد.. لكنَّها عالأقل الآن تعلم أنَّه حيٌّ يُرزق.. وتمتلكُ إحداثياتٍ له..

وداعاً لأفكار البحر وأمواج البحر المُتلاطمة وقاع البحر الشرير..

ياسر حيٌّ يرزق وهذا أجملُ ما في الأمر..

أدارَ ياسر الراديو وهو يقودُ السيارة ليكسر جو القلق والتوتُّر الذي طغى عليهم..

"والآن ندعكم مع أجمل الأغاني التركية.. واااااا الأغنية مُهداة من ياسر إلى يارا بمناسبة الأخوة وألف مبارك".. قال ياسر مُمازحاً.. وكأنَّه يقدم برنامج "ما يطلبه الجمهور".. الذي كان يُعرَضُ مساءَ كلِّ خميس..

"ما شاءَ الله.. تركية امتلكت الفضاءَ هنا.. إنترنت وشبكة جوّال وإذاعات.. كلُّه تركي.. لم تتردَّد أبداً في سدِّ الفراغ التكنولوجي هنا من أجلِ عيونِ الثورة".. تَمْتَمَتْ يارا بامتعاض..

"أشمُّ رائحة استهزاء.. طولي بالك يا بنت.. أخوكِ بعد قليل سيعبر الحدود إليها.. وليس من مصلحتنا مُعادة الأتراك.. يواش يواش جانم.. يواش يواش".. مازَحَها ياسر وهو ينظرُ إليها مُبتسماً..

بينما بدا سعد الذي جلس إلى جهة الشباك شارداً هادئاً على غير العادة لا ينطق بكلمة..

"يبدو أن سعدنا نعسان.. لم ينم جيداً البارحة.. تفقَّديهِ يا يارا هل يتنفس؟".. قال ياسر مُداعباً..

"عن يميني سعد وعن يساري يُسر.. كم أنا محظوظة بكما".. أردفت يارا التي كانت تجلس بينهما..

"لا لستُ نعساناً.. لكن لا أعرف لماذا والآن بالذات شعرتُ بالحزنِ على هذه البلد!

أصبحنا في بلدنا كالغرباء.. كما لو أنَّنا سيَّاح.. نرى من حولنا أعلاماً مُختلفة ترفرفُ هُنا وهناك.. حربٌ عالمية ثالثة اختيرت سورية مسرحاً لها.. ونحن لسنا أكثر من كومبارس"..

قال سعد وهو يتأملُ بساتين الفستقِ الحلبي التي تناثرت على جنبات الطريق لدى اقترابهم من مشارف جرابلس..

سكتَتْ يارا قليلاً ثم تابعَتْ بعد أن أخفضت صوت الراديو:

"من المضحك أن تفتقد شيئاً لطالما تَمَلْمَلتَ منه وتأففت..

أتذكرُ يا سعد؟ مذيعة الراديو التي تحدَّثنا عنها ذات مرة وعن خشونة صوتها (غير الإذاعيِّ) والتي كانت تقدم فقرة هُنا حلب..

أنا الآن أتوقُ لسماع صوتها يخرج من هذا الراديو ويلفظ هاتين الكلمتين "إيييييي هونا حالاب".. بنفس النحنحة والرداءة..

أريدُ شيئاً يشعرني بالانتماءِ (على فظاظته).. أحنّ لأيامٍ كنتُ أستعجلُ مرورها ويا ليتها بقيَتْ"..

"ألا يكفي جوُّ الدراما والأكشن الذي مررنا به اليوم.. ما بكما؟ ماذا شربتما؟ هيا اقلبا الصفحة.. أمرٌ وقَعَ ولا نملكُ احتواءَهُ.. عاصفةٌ وهاجتْ.. ماذا أقول.. لا أستطيع أن أدافع بالمطلق عمن تركت أهلي لأجلهم.. لأنَّني أصبحتُ أعرف البئر وغطاه.. وفي نفس الوقت لا أحنُّ مثلكم إلى سوطِ جلادي.. أريد بلاداً بلا سوط جلاد.. أهو مطلبٌ مستحيل؟"..

" أخبِرنا عندما تعثرُ عليها لنلتحقَ بكَ".. أجابت يارا بسُخرية..

تَدخَّلَ سعد ليخرج عن صمته مرةً أخرى:

"لي تحفظاتٌ على كِليكُما.. وقد تمنحاني الآن لقبَ الرمادي.. لكنَّ الاصطفافُ مع جهةٍ بعينِها في خضَّمِ هذه الضبابيَّة العالميَّة قد لا يكون خياراً صائِباً.. جهاتٌ باطنُها شيءٌ وظاهرُها شيءٌ آخر..

حتى المُنظَّمات الإنسانية التي ننضوي تحت لوائها يا يارا.. أتعتقدينَ أنَّها بلا أجندَاتٍ خاصَّة؟

نحن نعمل معها لنَوازعَ إنسانية شخصية فينا.. وكمصدر رزقٍ.. لكنَّ اللهَ وحدَه يعلمُ لحسابِ من تعملُ هي..

اختلف في يومنا هذا مفهوم الوطن والوطنية مع سيادة العولمة وتداخُل الألوية.. هي دوامةٌ تُطيحُ بالجَميع.. وما يزرعُ الطمأنينة في نفسي أنَّ فوق هؤلاء (الجميع) هناك ربٌّ أكبر هو المُهَيمن.. يرى ويعلم ولا يخفى عليه خافية.. وقد يُمهِل.. لكنَّه لا يُهمِل..

بالنسبة لي.. مبادئي المُنبثقة عن عقيدتي وإيماني بالله الواحد.. هي وطني الحقيقي الذي أدين له بالولاء.. وحولها أراقبُ المشهدَ بهدوء.. وأنحاز لما يتوافق معها ويُعززها..

دعونا الآن من هذه المُهاترات وهذا الحوار العقيم.. ولنفكر بالخطوة القادمة.. ماذا بعد؟ وإلى أين يا ياسر؟".. سأل سعد..

بدا ياسر شارداً مع ما سمعَه للتوِّ من سعد.. هو تحليلٌ آخرُ ورؤيةٌ مُختلفة للوضع ذاتِه الذي يحومُ الثلاثةُ حولَه.. دون حولٍ لهم ولا قوَّةٍ إلا بالله..

"لي صديقٌ هنا في جرابلس له وزنُه وعلاقاته.. سأستعين به لأطمئِّن بخصوص تسييركما إلى حلب وتأمينكما.. ثم سيساعدني في عبور الحدود إلى تركية من معبر جرابلس.. لم أخطِّط شيئاً.. ما جرى فرضَ علينا الأمر..

كنتُ أنوي تهريبَكما من جابر دونَ علمِه ثم أتظاهرُ بأن لا علاقة لي..

سأعاقَبُ حينها على إهمالي لكن لن يصلَ العقابُ لحدِّ الموت..

أما وقد اختلف السيناريو الآن.. فقد انقلبَ الإهمالُ إلى خيانةٍ عُظمى وقَتْل.. وأصبحَ الأمرُ مُعقَّداً.. ولا يُمكنني المُجازفة بالبقاء في سورية أكثر.. أرجو أن ننتهي من الأمر قبل أن يكتشفوا مقتل جابر"..

"لا تقلق.. أنا وبالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن جابر.. أرسلُ للديب كلَّ ساعتين رسالة تطمين.. ويردُّ عليَّ.. ويُفتَرضُ أنَّني سأقتُلكَ الآن يا هزّاع يا أسمر.. تعالَ لأفجِّرَ رأسكَ.. ههههه"...

ضحكَ سعد مُمازحاً ياسر الذي أجابه:

"ولا تنسَ أن تخبرَه أنَّكَ قرَّرتَ الانتحارَ بثلاثِ رصاصاتٍ في الصدرِ بدلاً من ذلك ودفنتَ نفسك في زريبةِ الدار"..

كانَ بعضُ المُزاحِ كفيلاً بتغيير الجو وتعديل الأمزجة إيذاناً بما هو قادم..

وصلَ الثلاثةُ إلى بيتِ حسين الذي استقبلهم بكلِّ ترحابٍ وحفاوةٍ..

"أهلاً وسهلاً بالغالي ومن معه.. كيف حالك يا أبو اليسر؟

زماااان يا رجل.. وين هالغطة يا وال؟"..

"حسونة أبو الحسَاسين.. أنتَ كما أنتَ.. بل وتزداد شباباً يا رجل..

شكلك ضارب زيجة ثالثة"..

"مجنونٌ أنا؟ باثنتين وأصبحت بنصف مخ.. فما بالك بالثالثة؟

لا يا عمي لا.. تركنا الدور لغيرنا.. كسرنا الدف وقعدنا"..

ثم التفتَ حسين إلى سعد ويارا مُنتبهاً إلى الإرهاق البادي على وجهيهما المُغبَرَّان قائلاً:

"أهلاً وسهلاً بضيوفِنا الكِرام تفضَّل أخي أنتَ والأخت اغسلا وجوهيكما وارتاحا ريثما يجهز الغداء"..

"لا نستطيعُ أن نتأخرَ يا أبو جاسم.. بيتُك عامِر.. كنتُ أريدُ أن نرتِّبَ معك إجراءاتِ إيصال أختي يارا وصديقي سعد إلى حلب.. وأنا أنوي بعدها أن أهجَّ إلى تركية"..

"خير إن شاء الله؟ هل حدثَ شيءٌ خطيرٌ؟ إذا كنت بحاجة لأيِّ شيءٍ رقبتي سدَّادة يا أبو اليسر"..

"تسلم حسون.. هذا أفضلُ خيارٍ للجميع.. سأخبرُك لاحقاً بالتفاصيل.. لكن لنبحث الآن كيفية سفر يارا وسعد ثم نتفرَّغ لي بعد الاطمئنان عليهما"..

"طيِّب تفضلوا نشرب القهوة ونتحدث".. أشار حسين بيده تجاه غرفة الضيوف داعياً الجميع..

"السفرُ إلى حلب ليسَ بهذه السُهولة..

إن أردتَ تجنُّبَ المرور من معبر كراج الحجز ثانيةً.. وهذا أسلم والله أعلم.. فأمامك خيارٌ آخر.. طريقٌ طويلٌ وشائكٌ من جرابلس إلى منبج ثم لفَّةٌ طويلةٌ من منبج إلى حلب تمتَّدُ حتى منطقة السلمية ليتوحَّدَ بعدها مساركم مع مسار القادمين من دمشق.. وتدخل حلب من جنوبها وكأنَّك قادمٌ من دمشق بعد المرور بالطريق البديل عبر إثريا وخناصر.. فالطريق الدولي القديم غير متاح".. قال حسين وهو يقدِّمُ القهوة لهم..

"يااه.. تخيل أنَّكَ مسافرٌ من الشمال إلى حلب التي تبعد عنك قرابة الـ ١٢٠ كيلو متر فقط جنوباً ويفترض أنَّها تحتاج ساعة ونصف قبل الحرب.. لترى أنك تتحرَّكُ من أقصى الشمال بشكلٍ مُتعرِّجٍ وطريقٍ بديلٍ أطول بأضعاف إلى الجنوب لتعود فتتجهَ شمالاً من جديد وتدخل حلب من مدخلها الجنوبي".. أضافَ ياسر..

"يا إلهي أصابني الدوار من مجردِ الفكرة".. قال سعد بأسف..

"وهذا لا شيء.. أمام كوكتيل الحواجز التي تنتظركم على الطريق.. جيش حر.. جبهة نصرة.. داعش.. أكراد.. ثم النظام وشبيحته.. ستتعرف إلى ثقافات مُتعددة.. لن تمَلّي أبداً وأنتِ تغيرين زيَّك وهيئتكِ بين حاجزٍ وآخر أخت يارا..

داعش تشترط حِجاباً وجلباباً أسوداً.. وحذارِ أن تنسي الأكف السوداء.. النصرة تتساهل مع الأكف والألوان لكن الأفضل أن ترتدي الجلباب مع الحجاب.. الحرُّ والأكراد والنظام لباسك الاعتيادي ولا اشتراطات في الهندام"..

"حسناً.. وهل الحواجز آمِنة؟ أقصد هل من مشاكل متوقعة معها؟".. تساءَلت يارا..

"مممم.. لا أعتقد أنَّ هناك مشاكل إلا مع حاجز الدواعش.. غالباً يخشاها الرجالُ أكثر.. العَثَرة الكُبرى في مساركما ستكون مروركما في مناطق سيطرة داعش.. حيث يُمنع منعاً باتَّاً سفر المرأة بلا مُحرم.. ويتمُّ التدقيق أكثر في هويَّاتِ الرجالِ والتحقيقُ معهم"..

"والعمل؟ ألا نستطيعُ تجنُّبَ حواجِزهم؟ أقصد أما من طريقٍ تُرابيٍّ بديلٍ نستطيعُ من خِلاله الالتفافَ وتجنُّب المُرورِ بِهم؟".. توجَّسَ سعد..

"لا يمكن.. هم يسيطرون على نقاطٍ مُهمَّةٍ في الطريق.. ودخلوا منبج منذ فترة.. ولا مفرَّ من المُرور بهم بأيِّ شكل.. أنا سأتكفَّلُ بإيصالِكما إلى هناك.. أعرفُ فيها شاباً فطناً.. داهية لا يَستعصي عليه شيء.. لسانه يلفُّ على بلد.. وعلاقته طيِّبةٌ بجميعِ الحواجز.. أعتقد أنَّه الأفضل في رحلتكما من منبج إلى حلب.. بإمكانِكُما أن تتأكَّدا منه بخصوصِ وضعِ الطريق.. لكنَّ معلوماتي حديثة ومُؤكَّدة.. وعليكما أن ترسما السيناريو المناسب للتملُّصِ من حواجز داعش ودوريَّاتِ الحسبة التي تُراقب المَدينة بسُكَّانِها.. كان بودِّي أن أقلَّكما إلى حلب.. لكنَّ اسمي معمَّمٌ على حواجز المجرم هناك.. ولا أستطيع".. سَكَتَ حسين قليلاً ثم استدركَ:

"هناك حلٌّ واحدٌ لهذه العُقدة قفز إلى ذهني الآن.. لا أعرف إن كنتم تقبلون به!"..

"ما هو؟ تكلَّم".. قال ياسر وسعد معاً بفضول..

"المشكلة مع داعش هي أنَّ الأخت يارا ستكونُ بلا مُحرَم.. وطبعاً سيلفت نظرهم وجود سعد برفقتها ويثيرُ الشكوك.. بإمكاننا أن نتحايل على الأمر.. لكن لا أعلم إن كان ..".. تردَّدَ حسين في استكمال عَرْضِ فكرتِهِ وكأنَّهُ يَخشى ردَّةَ فِعلِهِم..

"تكلَّم يا رجل.. ما بِك؟".. استعجَلَهُ ياسر..

"حسناً هناك من سيتولَّى تزويرَ ورقةِ عقدِ قرانٍ بين يارا وسعد إن أردتم.. أحدُ شبابنا بارعٌ في ذلك.. يزوِّر الكليشيه والختم والإمضاء ونصيغُ عقد قرانٍ مُزوَّرٍ بينَهما يستطيعان إبرازه لعناصر داعش..

وبهذا يُمكنُها أن تضمنَ أنَّها مُسافرة مع مُحرَم فلا يعاقبُها أو يطمعُ فيها أحدٌ.. علاوة على أنَّ الكَدمات التي على جسدِ سعد ووجهِهِ تُوحي بأنَّهُ مُصابٌ وسندَّعي أنَّها زوجتُه وترافقه في سفرِهِ في رحلة العلاج"..

"فكرةٌ رائعة".. ابتسمَ سعد في سرِّه بعد أن سَرَّهُ هذا السيناريو المُشوِّق.. كيفَ لا؟ وهوَ حلمُ العمرِ..

نظرَ الجميعُ إلى يارا بقلقٍ وتَوَجُّسٍ في انتظارِ أيِّ تصريحٍ أو مُداخلةٍ منها.. كونها الطرف الشريك في هذه الخطَّة..

سكَتَتْ للحظاتٍ ثم فجَّرَتْ مُفاجَأتَها!

"أنا لستُ موافقة على هذا الاقتراح.. ورقة عقد قرانٍ مُزوَّرة؟

لماذا.. ما الداعي للتزوير؟ هذا لا يجوز شرعاً.. والله أعلم..

فلنكتبْ عقدَ قرانٍ حقيقي..

عاجلاً أم آجلاً سيكون عليّ رد الجميل لهذا المسكين الذي تكبَّد مشقة المشوار من أجلي..

آثارُ الكدَماتِ التي تغطِّي جسدَهُ هي أغلى مَهرٍ قد أتلقَّاهُ في حياتي.. هيا يا وليَّ أمري تكفَّل أنتَ بالإجراءات.. وخيرُ البِرِّ عاجلُهُ".. التفتَتْ إلى ياسر الذي كان تحتَ وقع صدمتِهِ..

يارا المُتمرِّدة التي طالما تملَّصَتْ من فكرةِ الزواج.. تُوافقُ اليومَ وبكلِّ سلاسةٍ على عقد قرانها الفوريِّ وبكلِّ ثقةٍ..

"لا بدَّ وأن سعد سقاكِ شيئاً مَسحوراً في الطريق".. قالَ ياسر وهو ينظرُ إلى سعد الذي وقف مَشدوهاً ولم ينبسْ ببنتِ شَفة.. تَسمَّرَ في مكانِه هادئاً.. غيرَ أنَّ ضربات قلبِه أثارت فوضى عارمة فيه..

يارا.. حلمُ العمرِ المُستعصي.. تُقَدَّمُ لهُ الآنَ على طبقٍ من ذهب..

"أخشى أن يكونَ حلماً.. هل يُعقلُ أنَّني بدأتُ أهذي وأتخيَّل أموراً تحتَ وقعِ ضربةِ الرأس التي تلقَّيتها اليوم من جابر؟".. قال سعد مذهولاً...

ضحكَتْ يارا بخجلِ وحياءِ العروس لأول مرَّةٍ في حياتِها..

لأوَّلِ مرَّةٍ تُغلِّفُها هالةُ الأنوثةِ هكَذا.. لكن لِم لا؟

فبعدَ هذهِ الرحلة الغريبة التي خاضَتْها.. تغيَّرت في رأسِها العديدُ من القناعات.. وتأكَّدَتْ أنَّها مهما كانت قويَّةً.. فلا غنى عن رجلٍ يحبُّها ويحميها ويشاركها لحظات القوَّة والضعف.. فمجرد اطمئنانك بشراكةِ شخصٍ مُخلصٍ يُخفِّفُ عنكَ ما يصادفك من ألمٍ قادم.. ويُضاعف حجمَ الفرحِ القادمِ أيضاً.. بإذنِ الله..

زفَّة إلى منبج

لم يتأخر الشيخُ كثيراً.. جلسَ ياسر وليُّ أمرِ العروس قبالةَ العريس وبينهما الشيخ أبو صالح.. أما حسين وابنه البكر جاسم فكانا شاهدَين على العقد.. وألف مُباركٍ.. بالرفاه والبنين.. و"عقبى للعايزين يا حَبايب"...

هكذا وبكلِّ بساطةٍ تزوَّجَت يارا رسميَّاً مِن سَعد..

ربَّما كانَت بحاجةٍ لأن تُحْشَرَ في خانةٍ ضيقةٍ أو تقعَ في مأزقٍ كهذا يُجبرُها على الرضوخِ لخيارِ الزواجِ دونَ الشعورِ بالقلقِ أو التردُّدِ.. فمجرد معرفة أن لا خيار أفضل لديك يعفيك من جولة ندمٍ متوقعةٍ لاحقة.. وهذا فيه تطمينٌ كافٍ..

لطالما كانَتْ تُضخِّمُ حجمَ الفِكرة.. زواج.. بيت.. زوج.. مسؤوليات.. وأولاد.. نسختان أو ثلاثة من حمُّودة.. ولن يبقى عندها وقتٌ لتتنفَّسَ..

لكن مع ذلك يغمرها الآن شعورٌ عميقٌ بالراحة والاطمئنان.. بل والفَرحِ أيضاً.. علاوة على أنَّها حقَّقتْ أخيراً أمنيةَ الحاجَّة ناديا..

صحيحٌ أنَّها ستكونُ آخرَ من يعلم.. لكن المُهم أن تعلم.. لتفرحَ وترتاحَ أخيراً..

"مباركٌ يا أختي.. مباركٌ يا صهري العزيز.. الآن اطمئِّن قبلَ أن أودِّعكما.. الحمدُ لله.. وسبحانه كيف يُسيِّرُ الأمور..

حدثَ اليوم ما لم يكن بالحسبان أن يحدثَ أبداً.. أكادُ لا أصدِّقُ أنَّني زوَّجتُ أختي للتوّ.. وإن شاءَ الله تفرحوا بي قريباً".. قال ياسر مُمازحاً وتغمره الفرحة..

"حرَّضتم شهيَّتَنا على الزواج يا جماعة.. ستجعلوني أعيدُ النظرَ وأفكِّرُ بالثالثة.. مع أنِّي أعلنتُ اعتزالي".. ضحكَ حسين وهو يصافحُ العَريس ويقدِّمُ التهاني للعَروس..

أمَّا العَريس.... سعد.. وفي يومِ سعدِهِ هذا.. فكانَ كمن نالَ جوائز كل مهرجانات الفرح في الدنيا مَعاً وفي وقتٍ واحدٍ..

أمسكَ بورقةِ عقدِ القران وراحَ يُحملقُ فيها ويقرؤها مرَّةً تلوَ الأخرى..

"نعم نعم.. يبدو أنَّه صحيحٌ وحقيقة.. أنا الآن زوجُ يارا..

أعني.. يارا الآن زوجَتي"... فكَّرَ وهوَ ينظرُ إلى كلِّ مَن حوله بنشوةِ انتصارٍ عارمة.. كان هذا أقصى ما يتمنَّاه.. سيعودان الآن إلى حلب إن كُتبَ لهمُا التوفيقَ فيجمعهما سقفٌ واحدٌ.. ويدخلانِ بيتاً واحداً...

هذا كثيرٌ عليه اليوم.. وهذا ما جعله فخوراً بكدماتِه التي نالت تقديرَ يارا وجعلتها تثقُ به وترى فيه بطلَها القادم...

"لا أريدُ أن أفسِدَ عليكم لحظات فرحكم لكن علينا أن نتحرَّكَ لنصلَ إلى منبج قبل حلول المساء.. مُعظم الحواجز على الطريق.. تمنع الحركةَ بعد المغرب".. قالَ حسين وهو يحثُّهم على الاستعجال..

قلَّما يكتملُ الفرح.. فيارا وبعد فرحة عقدِ قرانها أمامها الآن غصَّةُ وداعِ ياسر من جديد..

"حسناً يارا.. علينا الآن أن نفترق يا أختي.. أنا أيضاً يجب أن أستعد للعبور إلى تركية قبل حلولِ الظلام.. لكن أعدُكِ بأنَّنا سنلتقي قريباً.. بأيِّ طريقةٍ سنلتقي.. إن شاء الله.. وأحمدُ الله أنَّك في عهدة زوجك الآن.. سعد رجلٌ طيِّبٌ وابن حلالٍ وسيضعك في عينيه.. لن أقول وداعاً.. بل إلى اللقاء"..

ضمَّها ياسر وقبّل جبينها.. وقلبه يعتصرُ ألماً لفراقِها.. بينما لم تستطع هي أن تتمالكَ دموعِها التي انهالت حُزناً على وداعِهِ من جديد قبل أن تستوعب فرحة لقائِهِ المُفاجئ..

قاطَعَ مراسمَ الوداعِ هذه زمورُ سيارةِ حسين الذي يبدو أنَّهُ استعدَّ وينتظرهما للانطلاق إلى منبج قبل مَغيبِ الشمس..

"هيَّا يا جماعة.. سنتأخر إن لم نتحرَّك الآن.. جاسم خذ عمَّكَ ياسر إلى أبو الفوز وقل له هذا هو الرجل الذي كلَّمَكَ والدي بشأنِهِ وهو سيتكفَّلُ بالباقي".. هتَفَ حسين بصوتٍ عالٍ من خلف مِقوَدِ السيَّارةِ..

توجَّهَ العروسان كمَن يخرجُ حقاً بزفَّةٍ من صالةِ الأفراحِ إلى السيَّارةِ.. لكنَّ العروس هذه المرَّة ترتدي جلباباً أسوداً وكفَّينِ مع طرحةٍ سوداء.. والعَريس أيضاً استبدل بِنطالَ الجينز الذي كان يرتديه بكلابيَّة جاسم الرماديَّة.. توطِئةً لدخولِهِم مضاربَ داعِش..

فتحَ سعد بابَ السيَّارةِ ليارا لتصعدَ قبله.. ثم استأذنَ حسين بالجلوس بجانبها في الخلف ولو لبعض الوقت كعروسين رسميَّين..

هزَّ حسين رأسَه مُبتسماً ومُباركاً فرحتهما وداسَ على البنزين.. و..... إلى منبج...

منبج هي مدينةُ الشُعراء.. كانت مَوطئاً للكثيرِ منهُم.. كالبحتري وأبو فراس الحمداني وعمر أبو ريشة..

تبعد عن حلب ٨٠ كيلو متراً إلى الشمال الشرقيِّ.. ويسكنها غالبيَّةٌ من العربِ والشركَس.. أحياؤها مزيجٌ من الأبنية الحديثة والبيوت العربية القديمة.. وهيَ الآن في قبضةِ داعش بعد أن كانت تحتَ سيطرةِ الجيشِ الحرِّ..

يفكِّرُ حسين في إيصالِ يارا وسعد إليها لتأمينهما مع صديقٍ لهُ يُقيمُ هُناك..

بيبرَس شابٌّ شركسيٌّ من سكانِ المَدينة يعملُ سائقَ سيارةِ نقلٍ بين منبج وحلب.. ويتمتَّعُ بعلاقاتٍ طيِّبةٍ مع مُعظم الجهات التي توالَتْ في هيمنتها على المدينة وصولاً إلى داعش حالياً.. وذلك لدماثَةِ خلقه وروحهِ المَرِحة وشخصيَّتِهِ المَرنَة في مُجاراةِ الآخرين..

وطبعاً لا غِنى عن خدماتِهِ كسائقِ نقلٍ على الطريق إلى حلب.. اجلب لنا من حلب.. وخذ هذه الأوراق إلى حلب.. وعموماً فإنَّ معظم سائِقي طرق السفريات يسعَونَ إلى التودُّدِ إلى عناصر الحواجز على اختلاف انتماءاتِهم واسترضائِهم بُغية تيسيير مُرورهم ومن معهُم من المسافرين بلا تعطيلٍ أو استعصاء..

مع غيابِ الشمسِ وإطلالةِ المَساءِ وصلت السيَّارةُ أخيراً إلى منبج.. كان التفتيشُ والتفييشُ على حاجز مدخلها سهلاً حيث التزمَ الجميعُ بشروطِ دفترِ المُواصفات الذي تفرضُهُ هيئةُ الحسبة..

سعد رجلٌ مُصابٌ وتعرضَ للتعذيبِ في جرابلس وهو في طريقه إلى العلاجِ في حلب برفقة حرَمِهِ المَصون يارا..

هذا هو السيناريو المُفبرَكُ الذي مكَّنَهُم من الدخولِ دونَ إثارةِ بلبلة وصولاً إلى حارةِ التبَّة حيث يقطنُ بيبرس..

"أهلاً وسهلاً بحسُّون.. علامَ كلُّ هذه الغيبةِ يا رجل؟

جرابلس رميةُ حجرٍ عن منبج ولا نراك إلا في المناسبات الرسميَّةِ وعيد الشجرة".. رحَّبَ بيبرس بصديقه حسين مُمازحاً ودَعا الجميع إلى الدخول لاستضافتِهِم في بيته..

"يا أخي من يوم يومك لسانك طويل ولا أقدرُ عليك.. كيف حالكَ أبو البيس؟".. سألَ حسين وهو يهمُّ بالجلوس بصحبةِ مَن معه..

"الحمدُ لله على كلِّ حالٍ.. كما ترى.. أنا أرتدي الزيَّ الباكستانيَّ على الموضة.. لكنِّي احتفظ في سيارتي بتيشيرت وبنطال لزوم المَشاوير في حلب.. يا رجل أصبحنا فعلاً كومبارس.. كمالة عدَدٍ.. نَغيِّرُ جلدَنا خلفَ الكواليس تماشياً مع ما يتطلَّبُه المشهدُ.. لم تُعرِّفنا بالأخ".. أشارَ إلى سعد..

"أخونا سعد من حلب ومعه زوجته الأخت يارا هما عرسان جُدُد تزوجا للتوِّ في جرابلس ويريدان....."..

"ويريدان قضاءَ شهرِ العسلِ في منبج.. ها؟".. قاطَعَهُ بيبرس كعادتِهِ مُداعِباً..

"آخ منكَ.. هذا أنت لم تغيِّر طبعك حتى بوجود داعش فوقَ رأسِك"..

"الأهمُّ أن يبقى رأسي فوق جسدي يا حسُّون.. فأنتَ لم ترَ الرؤوسَ التي أينعَتْ هُنا وتمَّ قِطافُها".. تبسَّمَ حسين بحرقةٍ من تلميحِ بيبرس ثم استدركَ:

"دعني أكمِل يا رجل.. ونسألُ الله أن يُبقي رأسَكَ على جسدك يا سيدي.. حسناً.. يارا وسعد يعملان أساساً في حلب الغربيَّة وشاءَت الأقدار أن يُختَطفا ويصلَ بهما المطافُ إلى هُنا.. ونُريد أن تُقلَّهما بالسلامة إلى حلب بمعيَّتِك يا أبو الشباب.. أنتَ أكفَؤ من نُوكِلُ إليهِ هذه المهمَّةَ"..

"على راسي أخي حسين.. لا تقلق.. جماعتك في عهدتي منَ الآن.. تَبيتان الليلة عندنا وغداً في الصباحِ الباكر نتيَسَّرُ إلى حلب إن شاء الله..

علينا أن ننطلقَ مع الفجر فالطريقُ طويلة ومُتعِبة.. من حُسنِ الحظِّ أنَّكُما كعرسان ستعتبرانها جولةً سياحيَّةً بين مناطق سورية.. سأجولُ بكما من الشمالِ إلى الجنوب حتى نستطيع الالتفاف ثانيةً نحوَ الشمال..

فحلب يدخلونها من الجنوب هذه الأيام.. لكن في الحالتين تمرُّون على الشراكس.. سواءً من الشمال أو الجنوب.. نحاصرُكم شمالاً من منبج وجنوباً من خَناصر بين فكيِّ كمَّاشتِنا".. ضحكَ بيبرسُ ثم أردفَ: "إيييه.. رَحِمَ اللهُ أيَّامَ الـ ٨٠ كيلو متر.. كنَّا نقطعُها في ساعة إلى حلب"..

"والنعم منكم أخي بيبرس.. كان لي صديقٌ شركسيٌّ درسنا معاً في حمص اسمه نارت ونعمَ الصديق.. يا أخي ما الذي أتى بكم إلى هنا؟ من يترك جمال بلاد القفقاس ليعيشَ هُنا؟".. تساءَلَ سعد..

"لم يستشرني أحدٌ يا أخي.. ولم أكن مولوداً وقتها..

جدُّ جدِّي شدَّ الرِحالَ إثر حرب التهجير هناك وقالَ يا شام.. أجدادُنا يقدِّسون بلاد الشام ويعتبرونَها أرضَ إسلامٍ مُباركة.. ويُقال أنَّ بعضَهم قد خلعَ نَعلَيهِ على ترابِها ما إن وطئتها أقدامُهم..

وتدورُ الدائرةُ بِنا ليعودَ قسمٌ كبيرٌ مِنَّا الآن في حربٍ وتهجيرٍ مُعاكسٍ إلى هناك.. لكن أتعلم؟ مؤكد أنَّ قدومَنا خيرٌ إن شاء الله.. فلولا حياتنا هنا لما تعلَّمنا اللغة العربية.. لغة القرآن.. والتزمنا بديننا هكذا.. رُبَّ ضارةٍ نافعة"..

"الحمد لله على كلِّ حالٍ.. حسناً يا بيبرس.. لندع الأخت يارا ترتاح مع المحروسة أختك لو تكرَّمتَ.. فواضحٌ أنَّها مُرهقةٌ جداً".. قالَ حسين..

"آسف.. أخذَنا الحديث ونسينا.. لا تؤاخذوني يا جماعة سأنادي مافا ولتتعرَّف الأخت عليها ويترافقا إلى غرفتهما.. وأنتما أيضاً ارتاحا لحين إعداد طعام العشاء".. أجابَهُ بيبرس مُعتذراً ثم نادى شقيقته مافا وعرَّفها بيارا وطلب منها اصطحابها والاهتمام بها..

توجَّهت الصبيَّتان إلى غرفةٍ مجاورة وخلعَت يارا عنها الجلباب وتمدَّدَت على أريكةٍ صغيرة..

"يبدو أنَّكِ مُتعبة؟ تشعُرين بصداعٍ أليسَ كذلك؟ سأجلبُ لكِ حبَّة سيتامول".. قالت مافا..

"لا لا.. شكراً جزيلاً يا عزيزتي.. لا أشكو من صداع.. لكنَّ جسمي مُضعضعٌ قليلاً بسبب السفر وظروف اليومين الفائتين.. لو سمحتِ هل عندكم خط إنترنت؟"..

"نعم بالطبع.. سأعطيكِ كلمة السرِّ.. لحظة"..

"لا.. لا أحملُ جوّالاً يا مافا.. سوف أثقِلُ عليكِ وتساعديني من جهازك"..

"لا عليكِ.. بمَ تفكرين؟"..

"أريدُ أن أدخلَ على حسابي في الفييسبوك لأتواصل مع صديقتي بَسمَة في حلب واطمئِّنَ إلى بعض الأمور من فضلك"..

"حسناً سأسجِّلُ خروج وأعطيكِ الجوَّال.. تصرَّفي براحتك.. ريثما أستكملُ إعدادَ طعام العَشاء"..

"لا أعرفُ كيفَ أشكُركم.. أنتم طيِّبونَ جداً.. ولستم مُضطرِّين لتحمُّلنا في هذه الظروفِ الصعبة.. شكراً من القلب عزيزتي مافا"..

"لا تقولي هذا.. الناس لبعضها.. ثمَّ من يدري؟ قد تدورُ بنا دائرةُ الأيام وننزحُ إلى حلب في ضيافتِكم".. أجابَتْها مافا مُمازحةً..

"لا سمحَ الله بالنزوح.. لكن عندما أعود لحياتي التي خُطِفَتْ مني.. سأدعوكِ لزيارتنا في حلب حتماً"..

أدخَلَتْ يارا بياناتِها وفتحتْ حسابها الفييسبوك لتُفاجَأ بكمِّ منشورات الأصدقاء على صفحتِها يُبدون تعَاطُفَهم ومُؤازرَتَهم للرهينة التي لم يُعرَفْ مَصيرُها هي وزميلها في العمل بعد!

عددٌ كبيرٌ من الرسائلِ الواردَة والكلُّ يريدُ الاطمئنانَ عليها وعلى رأسِهِم إدارتُها..

"يا إلهي ما هذه الضجَّة؟ لم يمضِ يومان على الواقعة قامَتْ الدنيا ولم تقعدْ في حلب.. كم يحبونَ الأكشن والإثارة.. حسناً لن أحادِثَ إلا بَسمَة سأشرحُ لها الأمرَ باختصارٍ واطمئِّنُ عن أمي التي لا بدَّ وأنَّها علِمَت بالخبر من فاعلي الخير الكثر والله أعلم بحالها الآن".. فكَّرَتْ يارا..

في هذه الأثناء كانَ الرجالُ قد تعشَّوا واستراحوا قليلاً..

سألَ سعدٌ مافا عن حالِ يارا وما إذا كانت تشكو من شيء..

"اطمَئِّن أخي هي بخير تمدَّدَتْ قليلاً وتتفقَّدُ الآن حسابَها على الفييسبوك لتتواصلَ مع صديقتها"..

"آه.. عظيم عندكم إنترنت إذاً.. هل بإمكاني أن أكلِّم يارا لأمرٍ مهُمٍّ لو سمحتِ"..

"طبعاً طبعاً.. بكلِّ سرورٍ.. تفضَّل".. أرشَدَتْهُ مافا إلى الغرفة وفتحَتْ له البابَ ودخلَ ثم انصرفَتْ لتتركهما بحريَّةٍ معاً مُفترضةً أنَّهما عرسانٌ جُددٌ..

فَزَّتْ يارا من على الأريكة وعدَّلَتْ جلسَتَها لدى رؤيتِها سعد فجأةً في وسطِ الغرفة..

"سعد؟ ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟ هل حدثَ شيءٌ طارئ؟"..

"لا أبداً.. أليسَ من الطبيعي أن أشاركَكِ الغرفة؟ أخبرَني بيبرس أنَّنا سنبيتُ ليلتَنا هنا (أنا وأنتِ) وننطلقُ إلى حلب مع الفجر.. ستكونُ أوَّلَ ليلةٍ لنا معاً في منبج يا زوجتي الجميلة".. همسَ بابتسامةٍ خبيثة..

جَمُدَتْ يارا في مكانِها.. ولأوَّل مرَّةٍ شعرتْ بالضعفِ والارتباكِ أمامَ سعد الذي طالما وقفَ هو كموظف أمامها باستعدادٍ وارتباك..

"لا بدَّ وأنَّكَ تناولتَ شيئاً ما.. أتمزح؟"..

"وهل الزواجُ مزحة؟ ثلاثٌ جِدُّهنَّ جِد وهزلهنَّ جِدّ.. النكاح.. والطلاق.. والرجعة"..

"سعد.. مرحباً.. لا تفضحنا أمامَ الناس.. عَيب.. عُد إلى غرفة الشباب.. واسترنا"..

"وأينَ العيب.. ألسنا متزوجين بالحلال؟ كم أتمنى أن أقيمَ فرحاً يليق بك.. وأحملك كباقي العرائس! لكن تعلمين.. أشبعني الوغد جابر ضرباً.. وأفرغَ غلَّه عليَّ بالكدمات.. ألا تعتني الزوجة الصالحة بزوجها المُتعَب".. اقترب منها وجلس بمحاذاتها فنهضت على الفور..

"لستُ جاهزةً لما يدور في رأسِك المُشبَع بالكدمات يا سعد.. اخرج الآن.. وإلا ندهْتُ مافا.. كونُنا متزوجان على الورق لا يُلزمني بشيءٍ في ظروفٍ كهذه.. كن عاقلاً.. فعلاً أستغرب تصرُّفَكَ هذا!"..

ضحكَ سعد بقهقهةٍ من كلِّ قلبه..

"جميلةٌ أنتِ بقوَّتِكِ يارا.. واكتشفتُ الآنَ أنَّكِ تبدينَ أجمل عند ضعفك وارتباكك.. هل جننتِ؟ أنا أمزحُ معكِ ليسَ إلا.. أخبَرَتْني مافا أنَّك هنا وبخير فدغدغتني رغبتي كالعادَة بالمزاح وطلبتُ منها الاطمئنان عليكِ قليلاً بنفسي.. هذا كلُّ ما في الأمر.. اهدئي يا مجنونة"..

تنفَّسَتْ يارا الصعداء وجلسَتْ بقربِه على الأريكة..

"ما أغلظَكَ يا سعد.. تزوَّجتَ ولم تنضج.. متى ستتخلى عن موهبتك الباردة ومزاحَكَ الثقيل هذا؟"..

"تزوَّجْتُ؟ أنا؟ الآن قلتِ أنَّه على الورق.. أريدُ دليلاً واحداً عملياً ملموساً على أنَّني تزوَّجت.. أيَّ شيءٍ بيطلع من خاطرك"..

"هههههه يا إلهي لقد فقدَ الرجلُ عقله.. توَّسل أكثر فربَّما أضعفُ وأُقَلِّبُ الأمورَ في رأسي".. أجابَتْ يارا على سبيلِ مُجاراتِه في المُزاح..

"هل أنتِ جادَّة.. ونتزوجُ الليلة؟"..

"ما بكَ يا سعد؟ عُدنا؟ أرى أنَّكَ اعتدتَ أن تمزح.. ولم تعتد أن يمازحَكَ أحد؟"..

"حسناً.. كلامٌ فارغٌ ووعودٌ فارغة إذاً ولن تكافِئيني الليلة بشيءٍ على بطولاتي.. طب اسمحي لي أن أمسِكَ يدَكِ على الأقلِّ"..

"عندما يحينُ الوقتُ المُناسبُ.. ليس الآن.. أنا أحبُّ أن تكون الأمور في نصابِها وبتمامِها وبشكلِها الصحيح اللائق.. لا أحبُّ أنصافَ

الأمور.. نحن وحتى إشعارٍ آخر متزوجان على الورق فقط لضرورةٍ أنتَ أدرى بِها.. الأمرُ بحاجةٍ لاستعدادٍ نفسيٍّ يا سعد ألا تفهمني؟"..

"مممممم حسناً.. هكذا أنتم دائماً معشرَ النساء تضرمون الحرائِق في قلوبنا ولا تخمدونَها.. أمَّا عنِّي فأنا مُستعدٌّ نفسياً منذ زمنٍ بعيد.. لكن يبدو أن محاولتي الآن باءَت بالفشل.. وسأعودُ إلى غرفة الشباب من غزوتي هذه مطأطئ الرأس أجرُّ ذيولَ الخيبة بلا غنائِم.. أيرضيكِ هذا؟"..

"هيا هيا عُدْ إلى رشدِكَ واستعذ من الشيطان.. وانضم إلى الشباب.. أمامنا غداً يومُ سفرٍ طويلٍ وسوف نكون نجومَ مؤتمراتٍ صحفيَّةٍ عِدَّة على ما يبدو من الفييسبوك"..

"آه نعم أخبرَتْني مافا أنَّكِ كنتِ تستخدمينه للتواصل مع بَسمَة أظن؟"..

"أجل.. تحدَّثْتُ معها ولكَ أن تتخيّلَ صدمتها وفرحَتها معاً بنجاتِنا..

المسكينةُ كادَ يقتلها تأنيبُ الضمير وتعتبر نفسَها السببَ في المشكلة.. ولولا أنَّ كوثر أوصلت لها حامد اليوم مباشرةً ولم تتأخَّر لجنَّ جنونُها على حمُّودة أيضاً.. الحمد لله.. الأمور كلها بدأت تتحلحل"..

"وماذا عن الخالة ناديا هل علمَتْ شيئاً؟"..

"وهل يخلو الأمر من مُحبِّي أخبار السوء.. نعم وصلها الخبر وكانت أصلاً قلقةً عليَّ لأنَّها تتصلُ على جوَّالي فتجدُه مُغلقاً.. وبعدَ أن سمعَت بخبرِنا اصطحَبَتْ ابنةَ خالتي واتَّجهتْ على الفور إلى حلب.. لكنِّي طلبت من بَسمَة الآن أن تطمئِنها ريثما نصلُ حلبَ نحنُ أيضاً..

ستكون حماتُك المَصون في استقبالِك يا زوجي العزيز.. وأيُّ استقبال! لا أضمنُ لكَ نتائِجَهُ أبداً"..

"خير إن شاءَ الله.. هذه الزيجة واضحٌ أنَّها سعدٌ لي من أوَّلِها..

صحيح.. نسيتُ أهلي أنا أيضاً.. تُرى ما هو حالهم؟ كيف تعاطَوا مع الخبر؟"..

"لا تقلق.. بَسمَة توَّلتْ الأمرَ وستطمئِنُ الجميع.. لكنِّي لم أخبرها أنَّنا تزوَّجنا.. أريدُ أن أرى وقعَ الخبرِ عليها وجهاً لوجه.. ستصابُ بالذهولِ حتماً.. فهذا أوَّل ما تتمنَّاهُ لنا.. وآخرُ ما تتوقَّعُهُ مِنَّا"..

"على بَرَكةِ الله.. حسناً ارتاحي إذاً لتتمكَّني من استجماعِ قواكِ غداً فأمامنا سفرٌ وجبهاتٌ في حلب.. تصبحينَ على خير"..

"وأنتَ من أهلِ الخَير"..

تركَها سعد وانضمَّ إلى الشباب.. في حين أحضَرَتْ لها مافا وجبةَ العشاء خصِّيصاً إلى الغرفة لتأكلَ بارتياحٍ ودونَ تحَفُّظ..

أشرقَ الصباحَ سريعاً واستعدَّ الجميعُ للمحطَّة الأخيرةِ من هذه المُغامرة..

الطريقُ إلى حلبَ الآن.. وبصحبةِ بيبرس الكلُّ مُطمئِنٌ للوضع.. ودَّعت يارا مافا.. وودَّع سَعْد حسين وشكرَهُ.. ثمَّ صَعدا السيارةَ أخيراً.. إلى.... حَلب..

حَلب تُرحِّبُ بكُم

من حُسنِ حظِّهم كانَ المسارُ بالرغم من طولِهِ مُريحاً وبلا مَشاكل.. يعرفُ بيبرسُ الطريقَ ومَن هُم على جنباتِهِ جيداً على اختلاف انتماءاتِهم.. ويتكفَّل بمتابعةِ عمليات التفتيشِ مع كلِّ حاجزٍ..

سارَ كلُّ شيءٍ على ما يُرام.. واقتربوا من مشارفِ حلب من مدخلها الجنوبي..

"فلتُدِر لنا الراديو أخي بيبرس.. لنرَ إذاعة من تُهيمِنُ هُنا الآن على الفضاء.. فكما تعوَّدنا من ترحالنا أصبَح لكلِّ رقعةٍ طابعَها ونكهتَها وديكورها الخاصّ.. بحسبِ القوى المُسيطرة".. قال سعد بأسف..

"لا عليكَ أخي.. غمَّة وتزول إن شاء الله.. نحن مُضطرون للتأقلمِ مع أيِّ وضعٍ إن أردنا الاستمرار.. ومع هذا سنرى حظَّكما الآن من الراديو"..

أدارَ بيبرس الراديو ليصدَحَ صوتُ مُذيعتِنا ذات الحنجرة الخشنَّة التي تتشبَّثُ بحتُّها في الأذنين..

"أعزائي المُستمعين.. نرحِّبُ بكم في هذه الفقرة المَسائية من برنامجكم هُنا حلب".. ضحكتْ يارا وسعد حالَ سماعِها..

للمرة الأولى ينتشيانِ هكذا ويُسرَّا لسماعِ نبرتِها التي لطالما نفرا منها وكانتْ ثقيلة على أذنيهما..

للمرة الأولى يريحُهما أن يسمعَا أنَّ "هُنا حلب"..

للمرة الأولى يشعُران بجمالِ هاتَين الكلمتَين هكذا مَعاً في جملة خبريَّة مُريحة.. ويقدِّران قيمَتَها..

"الحمدُ لله على السلامة.. ما هي إلا نصف ساعةٍ ونكون أمامَ باب الدارِ يا عرسان".. قال بيبرس بسعادةٍ عارمة..

فقد أتمَّ مهمَّتَه على أكملِ وجه.. وارتاحَ الآن بعد أن دخلوا حدود المدينة مُجتازين آخر حاجزٍ للنظام..

بدا وكأنَّهما يَرَيان المَدينة لأول مرَّة.. اختلفتْ نظرتُهما إلى كلِّ شيءٍ بعد خوضِ هذه التجربة.. بدتْ سماءُ حلب عند مغيبِ الشمس وهي تغطي شوارعَها المُزدحمة كسقفٍ آمنٍ لهما.. والأبنية الحجرية الجميلة في حيِّ الفرقان كسورٍ حصينٍ يقيهما.. وبدا سوقُ الحيِّ كنبضِ حياةٍ جديدة..

كانت بَسمَة في انتظارهما بصحبةِ حامد عند مدخل البناء.. لم تجرؤ أن تصعد وتنتظر في شقة يارا لعلمِها أنَّ الخالة ناديا وابنة أختِها فوق يُصلِّيان ويُسبِّحان منذ الأمس من أجل عودة يارا..

لم تجرؤ أن تواجِهَ الخالة قبل أن تصل يارا.. فلا إجابات جاهزة لديها بعد عن معظم أسئلتها المتوقعة.. وغير المتوقعة..

وصلتْ السيارة أخيراً إلى حيِّ سيفِ الدولة.. واستنشقت يارا أوكسجينها الحقيقي..

"وأخيراً.. الحمدُ والشكرُ لله.. لا أصدِّقُ أنَّني الآن أمامَ بيتي..

آه وهذه بَسمَة تنتظرنا في الشارع مع حمُّودة.. أيُّها المشاغب اشتقتُ إليك"..

"إحم إحم.. أصبحَ لديكِ زوج الآن يا حرمة.. وأنا أغار جداً من هذا الصغير لكنِّي لم أكن أخبرك".. قال سعد في مزاحٍ يشوبُه الجدّ..

"كفى بالله عليكَ يا سعد.. أجادٌّ أنتَ هذه المرَّة؟ أتغارُ من طفلٍ صغير؟ وهذه أيضاً معلومةٌ جديدةٌ أضيفها لسجلِّ مُلاحظاتي منذ أن تزوَّجنا"..

"حسناً.. أوافقُ أن تدلليه.. لكن بشرط.. تدلليني أيضاً بضعفَي المِقدار.. هكذا.. وإلا فلا حمُّودةَ بيننا"..

"أمري لله.. المرأة كما تقول أمي ما لها غير زوجها وبيتها ..... وحمُّودتها هههههه"..

ابتسمَ سعد وأمسَكَ يدَها ليترجَّلا معاً من السيارة.. فركضت بَسمَة ومعها حامد تجاه يارا بمنتهى الفرح والشوق.. بينما كان سعد يشكر بيبرس ويلحُّ عليه بالصعود لاستضافته وليرتاح عندهم من عناءِ السفر.. غير أن الأخير له أقاربٌ كثرٌ في حلب ويبدو أنَّه على موعد معهم اليوم..

حانَت الآن لحظةُ اللقاءِ بالحجَّة ناديا..

قرعَتْ بَسمَة البابَ ففتحَتْهُ لها أمُّ يارا يسبِقُ رأسهُا جسدَها إلى الخارج.. لم تسعْها الفرحة لدى رؤية ابنتها بخير وسلامة بعدَ كلِّ التكهُّناتِ التي وردَتْ على الصفحات الإخباريَّة في الفيسبوك..

فبعضُهم تحدَّثَ عن اكتشافِ جثَّتينِ مُتفحِّمَتَينِ على مَشارفِ مدينة اعزاز يُرجَّحُ أنَّهُما للرهينَتين.. وبعضُهم قالَ أنَّ داعش قطعَتْ رأسَ سعَد بينما ضُمَّتْ يارا للسبايا.. وقالوا.. وقالوا..

كما هيَ العادَة.. مثلُ هكذا أحداث تُحفِّزُ مُخيِّلةَ العامَّة فتتسلى في نسجِ أشنع السيناريوهات.. وهي تتمنى السلامة في تعليقاتها..

لكنَّ يارا الآن وبعدَ القيلِ والقال وبفضلِ الله بأمانٍ داخلَ بيتِها في حضنِ والدتِها التي ما انفكَّتْ تذْكرُ وتشكرُ وتدعو الله لا تفارقُها سبحَتُها الخضراء الدافئة دائماً..

الآن أدرَكَتْ يارا أنَّ للبيتِ معنىً.. وللعائلةِ معنىً.. وللزواجِ معنىً..

قبَّلْت يدَ أمِّها وكانَتْ مفاجُأة الجميع كبيرةً.. عندما فجَّرَتْ يارا قنبلتَها الأخيرة:

"نعم نعم يا أمِّي.. نجونا أنا وسعد بفضلِ الله ولطفِهِ.. وتزوَّجنا على سنَّة اللهِ ورسولِه"..

"تزوَّجتِ وسعد؟ هل أنتِ جادَّةٌ يا ابنتي؟ كيف؟ متى؟ لماذا؟

انتظري انتظري أريد أن أجلسَ.. لم يعدْ يواتيني الوقوف..

أكثرُ من صدمةٍ على الرأسِ تُوجِع"..

ترنَّحت أم ياسر كمن تلقى لكمةً مباغتة... وساعدتها بسمة في الجلوس على أريكة قريبة..

"ألم يكن مُنى عينِك أن تفرحي بزواجي.. ألم تُلمِّحي أكثرَ من مرَّةٍ بأنَّ سعد يبدو مُعجباً ومُهتمَّاً بي؟ وأنَّه ابنُ حلالٍ ولا يعيبُه شيء؟"..

"طبعاً.. وما زلتُ.. ولكنَّكِ كنتِ بعيدةً كلَّ البُعد عن موضوعِ الارتباطِ.. ماذا جرى لتتزوجي في يومَين؟ ثم تعالي هنا..

من هذا الصغير الذي يتعمشقُ في طرفِ قميصِك ولا يبتعدُ عنكِ؟"..

"(ما الذي جرى!) تحتاجُ لسهرةٍ طويلةٍ الليلة لأجيبَ عن هذا السؤال وأسردَ لكم الحكاية.. لكن بعد أن آخذ حمَّاماً ساخناً.. بينَما تُعدُّونَ لنا طعام العشاء.. أمَّا مَن هذا الصغيرُ المُدلَّلُ!" .....

سكتَتْ يارا للحظاتٍ وهي تتأمَّلُ حامد ثمَّ أردفت:

"يَبدو أنَّهُ وحتَّى إشعارٍ آخرَ ... سيكون.. (ياسر) ... يا أمِّي!"..